جامعة النيّلين
كلية الدّراسات العليا
كليّة الآداب
قسم اللُّغة العربية

المُبالَغة في شعر أبي العلاءِ المعرِيّ

(دراسة تطبيقيّة في ديوانه سَقْطَ الزّنِدِ)

بَحْث تَكْمِيلي لنَيلِ دَرَجة الماجستّير في اللُّغة العربيّة

إعداد الطالبة:
إيهاب آدم حامِد مُوسى

إشراف الدّكتور:
داؤود يعقوب آدم عبد الله

١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م

الآية

قال تعالى :

(وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

صدق الله العظيم

سورة الأعراف

الآية (٤٠)

إهداء

إهداء صفاء إلى أهل الوفاء والنقاء الطاهر

(**أمي العزيزة وإن يجعلني ربي براً لإنسانها الحنون**)

وإهداء إلى من كان مناراً في حياتي

(**أبي العزيز وخالي المفضال عندي والذي لم يقصر عني منذ طفولتي بل هو ساعدني**)

إهداء إلى **الدكتور عبد المالك بن إدريس** الذي دعمني بكل مرجع من مراجع

البحث ولم يبخل علي بمكتبته العامرة

الشكر والعرفان

الشكر لله أولاً وأخيراً الذي أنعم علي بفضله وكرمه منذ كان هذا البحث فكرة إلى أن وصل إلى هذه المرحلة.

الشكر الوطن للوطن السكن السودان، والشكر موفورُ إلى جامعة النيلين إدارة ومكتبة ولا سيما قسم اللغة العربية وآدابها، اساتذة وعاملين وجميع طلابها، كما الشكر أكرمه إلى مشرف وراعي فكري وموجهه في مسيرة البحث في صحبة المبالغة وابي العلاء المعري، وهو أهل اللّغة وعماد البلاغة دكتور/ **داؤود يعقوب آدم**، وفقه الله بالصحة والفكر المنير والصبر المثابر لدعامة اللّغة العربية وآدابها عماد الدين الحنيف.

المستخلص

جاءت هذه الدراسة فنية وبلاغية نقدية بين مصطلح المبالغة؛ وبين تطبيقه في شعر ابي العلاء المعري وديوانه سقط الزند نموذجاً؛ والذي يعتبر اسم الديوان صورة من صور المبالغة.

وجاءت ايضاً تطبيقاً في نماذج شتى من شعر ابي العلاء المعري في الغزل والفخر وغيرهما، وتطبيق صورة المبالغة وانواعها وانماطها في نماذج من شعره بجانب الاستشهاد بشعره دعامة لتعريفات بلاغيين للمبالغة.

يهدف البحث إلى تبيين الصورة المبصرة من خلال الدراسة التحليلية للمبالغة وأنماطها في شعر أبي العلاء المعري على الرغم من أنه أعمى، كما يهدف إلى تبيين وتطبيق معيار النقد الأخلاقي الذي يقيم شعر أبو العلاء المعري المخالف لأصول الشرع ونواميس الكون.

يرى الباحث انه عند تعريف أي فن من فنون البلاغة وتطبيقاتها في الادب العربي يكون الاستشهاد بشعر الشاعر او نثره موضع التعريف البلاغي المراد تطبيقه في الشعر لغة او اصطلاحاً حتى يكون التعريف دعامة تطبيقية على البحث البلاغي والاستفادة من الادب المبحوث عنه بواسطة فنون البلاغة في حلقات تدريسها على جميع المراحل التعليمية.

Abstract

This study was a technical and rhetorical criticism between the term exaggeration; and its application in the poetry of Abi Ala al-Maarri and his dossier Sagat al-zend as model; which is the name of the Court pictures of exaggeration.

And also applied in various models of the poetry of Abi Ala Al-Ma'ari in flirt and pride and others, and applying the image of exaggeration and types and patterns in the models of his poetry beside the martyrdom of his poetry a pillar of definitions of exaggeration exaggeration.

The aim of the research is to illustrate the picture through the analytical study of exaggeration and its patterns in the poetry of Abu Ala Al-Ma'arie, although he is blind. It also aims at defining and applying the criterion of moral criticism that assesses the poetry of Abu Ala Al-Maarri.

The researcher finds that when defining any art of rhetoric and its applications in Arabic literature, the poet's poetry or its prose should be quoted as the language of the poetical definition to be applied in poetry language or terminology so that the definition is a practical pillar on rhetorical research and benefit from the literature discussed by the arts of rhetoric in the workshops on all its educational stages.

مقدمة:

إن الحياة العربية في نشأتها قامت بين هذه الطبيعة، وبين أرض الشام والجزيرة العربية على أركان مكارم الأخلاق، والتي تقوم على قيم تمثل صوراً من النزعة الإنسانية بين كل انسان ومجتمعه الصغير المتمثل في الأسرة وعشيرته او قبيلته او شبعه الذي ينتمي إليه لا سيما ان كان هذا الإنسان شاع لسان حال مجتمعه، وهذا كان في الحياة العربية قبل الإسلام إلا أنه تغيرت وتغيرت معها موضوعات الشعر، وبواعث الشعراء فيها أدى إلى أن تظهر في صدر الإسلام موضوعات مثل الفخر والمديح والرثاء وأن ترتقي من حيز ضيق كان بين شاعر وقبيلته او أسرته إلى عالم الدفاع عن الدعوة الإسلامية في بداية صدر الإسلام، ثم انتقلت مقامات هؤلاء الشعراء لا سيما موضوعاتهم في المدح والفخر والرثاء إلى قصور الخلفاء، وتتالت من العصر الأموي إلى العباسي الأول والثاني، وبالأخص إلى مصر في العصر الفاطمي الذي لم يكن إلا إمتداداً لصور إنحلال العصر العباسي الثاني، وكأنه جزء منه لإختلاف العقيدة الدينية عند الفاطميين، ومع تغيير أمزجه خلفاء العصر الفاطمي مما جعل تبيين القيمة الفنية وكان نموذجاً لهو ابو العلاء المعري في العصر العباسي الثاني.

١-١ أسباب إختيار البحث:

قبل البدْء في الحديث عن شعر أبي العلاء المعري، فلا بد من الإنتباه إلى أن أبا العلاء شاعراً وصافاً دقيق التصوير، بارع الأسلوب في جميع موضوعات شعره على الرغم من أنه لا يبصر بعينه فهو أعمى ولكنه ملك للغة العربية وآدابها، ولكنه كان بارعاً في دقة التصوير في تشكيل الصورة الشعرية التي تميزت بأسلوب حمل من خلفه خيالاً خصباً وعاطفة صادقة في جميع تراثه الشعري والنثري ولقد بان في هذا النثر أتجاهين:

١. اتجاه يبين تعمده في صناعته الأدبية أسلوب المبالغة وأنماطها كبلاغة الصورة والتشابه والإستعارات التي جعل صورتها الفنية سواء كان في شعره أم نثره أن يقع في أسلوب المبالغة وهذه ناحية فنية بمعيار النقد.
٢. الإكثار في دقة التصوير الذي يبين عمق خياله هو أيضاً ضرب من أسلوب المبالغة الذي يسمى الإغراق سواء أكان في تشبيهاته أو صناعته لصور البيان كالاستعارة بنوعيها بجانب بلاغتها المتمثلة في التجسير والتشخيص وغير ذلك من الأساليب البيانية كل هذا جاء من شاعرية شاعر أعمى من خلال صور مبصرة لواقع الكون وامتداده، مما دفعه بما يحمله من تأثير في اعتقاده وعقيدته جعله يخالف في نظم شعره أو نثره أن يخالف سُنن الكون مما كان له أثر في أسلوبه الذي جاء به في صورة من المبالغة للشرع مما تقع مثل هذه النصوص في موضع الغلو بمعيار النقد الأخلاقي وكأنه شاعر بالمبالغة وأنماطها، مما دفعني لإختيار هذا الموضوع لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد بعنوان (المبالغة في شعر أبو العلاء المعري في ديوانه سقط الزند).

١-٢ أهمية البحث:

تبرز للبحث أهمية لأن موروث ابو العلاء الشعري يمثل قيمة الأدب العربي إلا أنه عام، فأهمية البحث تبين في دراسة هذا الشعر من تحت تلك الصورة المبصرة لهذه العيون السوداء لجميع مكونات الحياة .

١-٣ مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث بين شعر أبي العلاء المعري يحمل اتجاهات وأساليب شتى لضروب صناعة الشعر، لا سيما في عهد إزدهاره العباسي بجانب تميز شعره بصورة وأساليب المبالغة وانماطها فيه ، هل دراسة المبالغ المبالغة في ديوان سقط الزند يحقق شاعريته من خلال تحليل البلاغ النقدي.

١-٤ أهداف البحث :

- يهدف البحث إلى بيان الصورة المبصرة من خلال الدراسة التحليلية للمبالغة وأنماطها في شعر أبو العلاء المعري على الرغم من أنه أعمى.
- يهدف البحث لتبيين وتطبيق معيار النقد الأخلاقي الذي يقيم شعر أبو العلاء المعري.

١-٥ منهج البحث:

المنهج الذي سيتبع في هذه الدراسة هو المنهج التكاملي إذ يقوم الباحث باستقراء النصوص التي هو بصدد الدراسة ثم يحللها، ثم يصف ما بها من الظاهرة موضوع الدراسة.

١-٦ حدود البحث:

لهذا البحث حدود زمانية وأخرى مكانية، إنحصر المجال الزمني في العهد العباسي الثاني؛ وهي الفترة التي تعرف بعصر الدويلات وسمي بعصر الفاطميين بلاد الشام، أما الحدود المكانية فهي ما يعرف سابقاً بمنطقة الجزيرة العربية وحدود الدولة الإسلامية، ودراسة بلاغية نقدية على ضوء

التحليل الفني للصور التشابهية، والاستعارات والكنايات التي جعلت من أبو العلاء المعري شاعراً بأنماط المبالغة في شعره في ديوانه سقط الزند.

١-٧ هيكل البحث :

الفصل الأول: عصر الشاعر

المبحث الأول: عصر الشاعر من حيث الحالة السياسية –الأدبية – الاجتماعية

المبحث الثاني: حياته ونشأته بجانب عقيدته وأثاره حتى وفاته

المبحث الثالث: العرض العام لديوانه سقط الزند

الفصل الثاني : المبالغة وانواعها ومفهومها وآراء العلماء حولها

المبحث الأول: تعريف المبالغة

المبحث الثاني: آراء العلماء حول المبالغة

المبحث الثالث: أنواع المبالغة

الفصل الثالث : دراسة تطبيقية فنية في شعر أبي العلاء المعري

المبحث الأول: صور المبالغة في الغزل والفخر

المبحث الثاني: صور المبالغة في الفخر والحماسة

المبحث الثالث: صور المبالغة في الرثاء والحكمة

□

١-٨ الدراسات السابقة:

١. دراسة مجتبى نور الدائم (٢٠٠٥): الحيوان في آدب أبو العلاء المعري تناولت هذه الدراسة وصف الحيوان ورحلاته لبعض المدن، كما ذكر مؤلفات أبو العلاء المعري بصورة عامة، ثم وصف الحيوان ورأفته وإتهامه بالبرهمة.

٢. دراسة ولاء قسم السيد (٢٠٠٦) التي جاءت بعنوان "الصورة الفنية في شعر أبو العلاء المعري (سقط الزند نموذجاً)" وقد تناول الباحث في هذا الحث الصورة الفنية وإتخذ أغراض ديوان سقط الزند، وأخذ أيضاً عناصر الصورة بشكل عام والعناصر البلاغية بالصورة والتشكيل.

٣. بحث حياة أبو عافية "الصورة الفنية في شعر أبو العلاء المعري وأثرها في المعنى دراسة إحصائية تحليلية، (بحث لنيل درجة الدكتوراه في اللُّغة العربية جامعة ابو طيفان – بيروت).

□

الفصل الأول

عصر الشاعر

المبحث الأول: عصر الشاعر من حيث الحالة السياسيّة – الفكرية – والاجتماعية

المبحث الثاني: عصر الشاعر من حيث حياته ونشأته بجانب عقيدته وآثاره حتى وفاته

المبحث الثالث: العرض العام لديوان سقط الزند

المبحث الأول: عصر الشاعر من حيث الحالة السياسيّة والاجتماعية:

قَبل البدءِ في تثبيتِ صُورٍ مِن الملامح السياسية لعصرِ (سَقْطِ الزِندْ) شعراً وشاعراً، لابد من توكيد أنّ الحياة السياسية تُعد مِنْ أهمِ المؤثرات الفكرية والاجتماعية واللُّغوية والأدبيةِ التي أثارتْ على إنتاجهِ، وسواء أكان الشعري او النثري كقيمة انسانية، أظلتْ "أبا العلاءِ" وقومهِ في عَصر سَقْطِ الزِند اظلتّهم دولة ذاتِ شُعوب متنافرة لا تربطها عواطف متحدة، ولا مشاعر متجانسة، وإنما هي أخلاطٌ من عناصر وأوزاع مِنْ دماءٍ وانسّابٍ من ألوانِ دولة ممزقةِ الأوصالِ، منتهيةٍ الأطرافْ، تعاني انهياراً في شتّى أقاليمها.

وفي الحق أنْ التمزق لمْ يكُنْ جديداً عن الدولة الإسلامية في ذلك العصر وحده فَقَدْ شهدتْ مِنْ قبل انفصال أطرافها وتعدد دويلاتها، فقد كان في أول عهد الدولة الإسلامية مظهراً من مظاهر القوة الإقليمية والاستغلال الذاتي، والتمرد على السلطات المركزية، أما في هذا العصر أو قبله بقليل فهو يأخذ مظهر انهيار عام لم تشهد الدولة الإسلامية له مثيلاً مُذ صارت دولة المشرق الكبرى.

لمْ يُكن مَا قِيل ضعفاً عاماً بَلْ تَجاذُب القُوى المِتعارضة وتَشادّ العناصر المتنافرة في دولة تقسمها أهواء دينية واوضاع اقتصادية، وتتقابل فيها قوة بغداد مع قُوة الأمراء في عواصم الدولة الواسعة حَلب او القاهرة او قُرطبة، فكان ما يُوصف بأنه انهيار للسلطان العام في قلب الدولة الإسلامية يعوضّه ما يشبه ازدهار السلطان الإقليمي الخاص في أطرافها، لكن هذه الأطراف ما لبثت أنْ سرى فيها الضعف ودب اليها الفساد وصارت إلى تحلل بطئ[1].

[1] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية دكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط٤، ص٤٩.

وأحتاج هنا إلى استطراد يسير فالذين يؤرخون انحلال الدولة الإسلامية بظهور الدويلات الإقليمية لا يفرقون بين العهد الذي كان ظهورها فيه نتيجة لقوة الاطراف العهد الذي انهارت فيه الأطراف أيضاً وتمزقت من هنا وهناك.

لقد قسموا العصر العباسي إلى قسمين[1]:

الأول منهما عصر القوة: ومن قيام الدولة العباسية إلى مقتل "المتوكل".

الثاني عصر الضعف: حيث أظلّت الدولة الإسلامية (دولة الديلم ببغداد، والعلويين بطبرستان، والسامانية فيما وراء النهر، وآل سيكتكين في الهند وافغانستان، والحمدانية في الجزيرة، وآل الأخشيد بمصر – وقبلهم الطولونيون – ثم الدولة الفاطمية).

هذا مظهر ضعف لأن المسلمين "في ذلك العصر لم تكن لهم دولة جامعة، ولم تظلهم راية واحدة، ثم راحوا يتحدثون عما يستلزمه هذا الانقسام من تفرق القوة وانتشارها، ويعدون ما تؤدي إليه تلك الحالة السيئة من نتائج منكرة.

ولعلنا لو تجاوزنا هذه الدائرة المركزية المحدودة أن يتردد في الحكم بأن حركة استغلال الأطراف في القرن الرابع كانت مظهر ضعفاً عاماً وانهياراً شاملاً، بهذا الحكم حتى مستهل القرن الخامس، أقرب مثل لها نشير اليه هنا إمارة "سيف الدولة" بحلب ووصفها الدكتور طه حسين قال: (اتخذها لملكه حاضرة وجعلها من أكبر مدن المسلمين واوسعها فناً، ومن أرحبها للعلم داراً، واوطأها للأدب كنفاً، ومن أحسنها في حماية الدين بلاء، واشدها في قتال الروم غناء)[2]، ومع ذلك قد سمى العصر الذي أظل ذلك الأمير وامارته العظيمة عصر انهيار سياسي عام شامل فقال: (إن الحياة السياسية للمسلمين ذهبت ريحتها حين لم يبق من الخلفاء إلا الأسماء)[3].

---

[1] رسالة الغفران، ابو العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٥٣.
[2] تجديد ذكرى ابو العلاء، الدكتور طه حسين، مصر، دار المعارف، ط٦، ١٩٦٣م، ص٤٨.
[3] تجديد ذكرى ابو العلاء، الدكتور طه حسين، مصر، مصدر سابق، ص٤٨.

قلت: (لئن صح هذا بالنسبة إلى الخلافة المركزية في بغداد فإنه لا يصح بالنسبة إلى الدويلات الناشئة نفسها، وأن عصراً شهد قيام الحمدانية في حلب، الطولونية ثم الاحشيدية في مصر، والأموية في الأندلس، البويهمية في فارس لا يسهل التسليم بانه عصر اضمحلال خالص وانهيار سهل وإن سلمنا بانه ليس عصر تركيز للسلطان العام بل عصر تمزيق للقوة المركزية ببغداد وقوة في الأطراف.

إن من الممكن – لو ساعفت الظروف – أن تتكون في ظل الاتحاد الإسلامي دولة قوية مستقلة، وتكون حركات الاستغلال للحكم المحلي منها مظهر نمو يشبه إلى حد بعيد ما يكون من نماء طبيعي بالانقسام، حيث تنفصل افراد الكائن الحي عن اصلها حين تبلغ مبلغ النضج وتدرك من النمو حظاً يعينها على التفرد بشئونها ويؤهلها لحمل أعباء الحياة المستقلة، لكن نجاح الدولة المركزية كان في ذلك الحين أقصر من أن يظل هذه الأطراف المتباعدة كما ان سلطان "بغداد" كان أوهن وأوهى من أن يجمع ذاك الشتات المنتثر[1].

وهنا يسأل سائل: فلم تمض هذه الإمارات في حركتها وتستكمل قوتها وتقر سلطانها آمنة من ناحية "بغداد"؟ وجوابنا عن هذا ان الظروف فرضت على تلك الامارات ان تظل مرتبطة بمركز الخلافة حرصاً من هذه الدويلات الناشئة على الاحتفاظ بالمظهر الديني لقيادة الجماهير المحكومة، واقتضى ارتباطها الاسمي بخليفة المسلمين ان يهيئ لها من الاطمئنان والحرية ما يجعلها تتفرغ لشؤونها وتنهض بحمل اعباء الملك المستغل واحتمال تبعاته.

ان التطور الحضاري الكبير في العصر العباسي تشمل جوانب الحياة المختلفة، الفكرية والاجتماعية والحضارية وغيرها، لا شك ان معاني الشعر واغراضه شملها

[1] تجديد ذكرى ابو العلاء، مصدر نفسه، ص٥٠.

هذا التطور والتجديد ووصلتنا قصائد رائعة وموضوعات مختلفة جديدة ما كانت تخطر ببال الشاعر العربي قبل هذا العصر.

ان هذا التطور الحضاري لفت انتباه شعر العباسي إلى موضوعات لم تخطر على سابقيهم من الشعراء ولم يهتموا لها كرثاء الحيوان الاليف ومنه غير الاليف[١].

ولقد زاد من قسوة الواقع ان الملوك والأمراء الأشداء في الأطراف عزّ عليهم التخلص من الارتباط بخلفائهم الضعاف، إذ كانوا يتلمسون سند عروشهم من سيد ذي صفة دينية وهو في الواقع محكوم مستضعف يطبون لإمارتهم الفتية أنفاس الحياة من مريض، مشدودين إلى عاصمة الخلافة، وقد كانت في ذلك العصر ملهى الجند، وميدان الطامحين، ومرمى الثائرين ومرتزق المغامرين[٢].

لقد كان الخلفاء في تلك الفترة على ضعفهم اقوياء بحكم مركزهم الديني لا يملك ملك الا بأسمائهم ولا تقام صلاة جمعة في جامع الا مع الدعاء لهم، ولا تتداول عملة الا ان تكون مضروبة باسمهم، فإن تمرد والٍ او امير على هذا السلطان او ذاك فهم امام شعبه أيضاً، هكذا كانت القوى موزعة بين الحلفاء والامراء: للأولين القوة الدينية بهيبة شرعيتها وسلطانها التقليدي الموروث على نفوس العامة، والآخرين قوة السيف والرمح، وتبلغ بهم مركز الامارة تغريهم بالطموح إلى الاستغلال، ولكنها تضعف في الوقت نفسه حين اقتحام حصن الرعية العتيدة الراسخة.

اكثر المؤرخين يعدون سلطان "بغداد" في ذلك الحين اسماً مظهرياً، يصفون استغلال الاطراف بانه استغلال ذاتي لا يربطه ببغداد سوى مظاهر اسمية غير اني اراه استغلالاً اسمياً مظهرياً يخضع في حقيقة الأمر لسلطان شرعي قاهر، وان بدا الأمر في ظاهره عكس ذاك فإن الأمير على قوته التي كانت تنزع به إلى الاستغلال

[١] رثاء غير الانسان في الشعر العباسي، عبد الله عبد الرحيم السوداني، ط ابو ظبي ١٩٩٩م، ص١٧٥.
[٢] تجديد ذكرى ابي العلاء، مصدر سابق، ص٣٩-٤٥.

لم يستطع التخلص من التبعية للخليفة والارتباط به او التماس الحق الشرعي من يده، مهما تكن يداً ضعيفة لا تقوى على حمل عصا او رفع سوط.

ومن ثمّ كانت الثورات الإقليمية – سواء أقام بها قادة طامحون ام افراد وجماعات من الثائرين – قصير الأمل، محدود المجال تنشأ نشأة طبيعية أثر للطغيان او شعوراً بالقوة او اختلاساً للسلطان، وتغذيها عناصر جامحة واسعة الآمال بعيدة المطامع، ثم لا تلبث أن تصطدم بالسلطان التقليدي لبغداد فتغتبط دون أن تبلغ مداها.

في الحقّ ان هناك نفراً من الحكام تفادوا الاصطدام بتلك الصخرة فتظاهروا بالخضوع لسلطانها الديني كي يستغلوه لدعم سلطتهم الاقليمية، هؤلاء كانوا يعرفون أثر الدين في النفوس ويقدرون سلطانه العتيد عليها فاتخذوا من صلتهم ببغداد وسيلة لإثارة انفعال جماهير الشعوب والتأثير عليها وسخروا الشعور الديني لإخضاع الجماهير واستهوائها وكسب طاعتها والظفر برضاها، بل ان منهم من رأى نقل "الخليفة" إلى عاصمة اقليمية ليقوم في مكة مظهراً دينياً يسترضي الشعوب، لكن هذه السياسة لم يكن لتعيش الا بقدر ما يعيش الامير الحاكم، فاذا مات وخلفه ذرية ضعاف ضاع التدبير بعد اعوام قد تقدر بالعشرات، أي شيء هي اعمار الدول بل في اعمار الأسر الحاكمة نفسها[1].

هذه دولة سيف الدولة وقد كان لها من القوة ما كان اجتمع ببابها فيما روى صاحب "اليتيمة" ما لم يجتمع بباب احد من الملوك، ثم لم يكد اميرها ليمضي حتى انقرضت ولم يملك منها بعده سوى اثنتين: ابنه سعد الدولة، وولده ابي الفاضل.

[1] رسالة الغفران، ابو العلاء المعري، دراسة نقدية، عائشة بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص٦٥.

وتلك دولة الأخشيدين وبدأت قوية طامحة كما تعرف ثم انقرضت بعد حفنة من السنين لم تبلغ أربعين عاماً، من هنا أتت تلك الدويلات الفتية الناشئة التي بلغت من القوة الاقليمية ما كان جديراً بأن يحمي الملك الذي انتزعته بحد السيف، ويثبت العروش التي اقامتها فوق أسنة الرماح، فكل قائد يبلغ مبلغ القوة يستطيع ان يخرج على الأمير اذا ضمن سكوت الخليفة او السلطان وما ارخص هذا وما ايسره!.

والعصر العباسي قد سمي بالعصر الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من عمران وكل مظهر من مظاهر الضعف في أمراء الأقاليم يعالجه الاقوياء الطامحون من جندهم ومواليهم او جيرانهم ومنافسيهم – بضربة باترة شافية – ثم يلتمسون من الخليفة ان يبارك هذه الفعلة الطيبة، وكل عرش يموت اميره عن وريث صغير او ضعيف تتطال اليه الاعناق الشاعرة بفضل قوة لا على القوي ان يطأ رؤوس الورثة ويدوس على جثث الزملاء فإن الخليفة في بغداد يستطيع ان يتوج المجد المغتصب، ويؤيد بصك شرعي كريم وإن بني على اشلاء الضحايا[1].

وهذه واحدة واخرى اهم وأخطر وهي ان تلك الامارات لم تكن وراءها – في الغالب الأعم – شعوب قوية متكاتفة تؤمن بأميرها وتبارك جهاده وتسنده في نضاله وتؤيده في سعيه نحو التفرد والاستغلال، بل لم تكن ثمة رابطة تربطها به من اتحاد العواطف وتجانس المشاعر وحدة المقاصد، وفما اكثر ما كان الامير اجنبياً عنها غريباً عليها، يفد والياً من قبل الخليفة او السلطان فيبدأ في العمل لحسابه الخاص ولم تكن الفرصة تتاح طويلاً كي تضم أسرة على عرش ونمنح الأمير بالرّعية وتربطهما جميعاً بروابط عملية من إتفاق المصالح وإتخاد المنافع ووحدة المصاير.

نحن أمام بوادر ضعف عام وانهيار في شتى أقطار العالم الإسلامي ففي بغداد قلب الدّولة يضعف شأن الدّيلم القائمين بالأمر فيها وتطمع فيهم العامة ويكثر

[1] تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، ط٢٦، دار الثقافة بيروت، لبنان، د. ت، ص١٦٠.

المفسدون في الارض، وبشغب الجند على "سلطان الدولة"، فينحدر إلى "واسط" مستخلفاً أخاه ثم يقتتل الأخوان ويفر سلطان الدولة إلى الأهواز تاركاً بغداد بشغب الجند وعبث العامة، والظاهرة المؤلمة هنا هي مأساة المؤرخين "خلد سلطان بغداد من السلطان" مع قيام الخليفة بها بل أن الخليفة نفسه يستجد بمن ينهض بأعباء السلطة ليحد من فوضى "النهب والفتن فيها لخلوها من السلطان" قال أبو الفداء في تاريخه: "وفي سنة ٤١٧هـ تسلط الأتراك بغداد فأكثروا مصادرات الناس وعظم الخطب وذلل الشر ودخل في الطمع العامة والعبارون بسبب خلو بغداد من السلطان[١].

وفي سنة ٤١٨هـ سار جلال الدولة ابو طاهر بن بهاء الدولة من البصرة إلى بغداد بأمر الخليفة لما حصل من النهب والفتن ببغداد لخلوها من السلطان ودخلها في الثالث من رمضان وخرج "القادر" لملتقاه على ان جلال الدولة لم يمكث طويلاً في سلطته اذ ما لبثت الفتنة ان قامت ببغداد بين السنيين والشيعة عام ٤٢٢هـ وعاد الجند إلى شغبهم فاخرجوا السلطان من ملكه ونهبوا داره عام ٤٣٣هـ وهو العام الذي يمكن ان يكون بدأ فيه أبي العلاء وبدأت روحه الفنية تملى فيه بعده بقليل، وفي فارس في المشرق الآسيوي تلوح لنا تلك الساحة الواسعة من العالم الإسلامي مخضبة بالدماء ففي ناحية منها نرى الحرب ناشئة بين أبن (سلطان الدولة) – وكان على الأهواز – وبين عمه "ابي الفوارس قدام الدولة: ملك كر مان) فيقتصر الابن ثم يهزم ثم ينتصر، والبلد تُصْلى نار الفتنة والحرب وفي الأندلس أقصى المغرب شهد مطلع القرن الخامس أفول شمس الخلافة الأموية في الغرب، وسقوط دولتها وتمزق

[١] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، د: عائشة عبد الرحمن، مصدر سابق، ص٥٣.

حواضرها الطوائف وتصدع بنيانها ايذاناً بحتم النهاية الفاصمة وتسمع قول "ابن رشيق"[1]:

مما يزهدني في ارض اندلس *** مقتدر فيها ومعتضّدِ
ألقاب سلطنة في غير مملكةً *** كالهرّ يحكي انتفاضاً صولة الأسدِ

هذه هي بعض الأحداث في الدولة واطرافها، واما في حلب نفسها وهي حاضرة الاقليم الذي تقع فيه معرة النعمان مهد أبو العلاء وحدث كل هذا واكثر منه على مسمع من أبي العلاء وقد قضى ستين عاماً من عمره وبشرف من عزلته على ذاك الضجيج اللاعب والصراع المحموم، ويرى – وهو في كمال نضجه وذروة وعيه – انتقال الدولة من هؤلاء إلى أولئك ونوازل الاحزاب التي تتبع مثل هذا الانتقال وتعصف بأخلاق الناس عصفها بأرواحهم واموالهم ومن ثم نفهم لماذا زهد أبو العلاء في امجاد الساسة وابرأ منها عالمه الآخر؟ اذ نفسر لنا رفضه فساد الاوضاع ان آخراه كانت حراماً على رجال السياسة والحكم لم يدخلها منهم احد باستثناء موقف واحد من مواقف الحشد ذكر فيه أبو العلاء الملوك والحكام في عالمه الآخر[2].

الحالة الاجتماعية:

عندما نذكر الحياة الاجتماعية لحياة أي شاعر ولا سيما في العصور القديمة نجد اكثرها صورة للقصر، وما فيه من حياة لها مؤثرات على الشاعر على حسب مكانته في البلاط انما أبو العلاء المعري بما هو أعمى وعازف عن البلاط واجهته متغيرات العصر وصدماته من احداث تتابعت من خلال العصبية القبلية والمذهبية

[1] رسائل البلغاء، محمد كرد علي، ط القاهرة، ١٩١٣م، ص٢٣٦.
[2] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، د: عائشة عبد الرحمن، مصدر سابق، ص٦٢.

التي انشئت صوراً مستبصرة في أفكاره مبصرة بتعبيره المتشائم مرة والخارج عن نطاق الاصول مرة اخرى المرتقي بخيال الحكمة في اغلب اشعاره ونشره الفني[1].

هذا الذي جعل صورة الحياة الاجتماعية احد بواعث شعر أبي العلاء ونثره ولن نحتاج بعد هذا إلى اطالة الحديث عما بلغته الحياة من سوء في مجتمع كهذا طبقي، متصدع، الثروة فيه تتبع القوة التي يستأثر بها آحاد معدودون الحركات العلمية لم يقصد بها تحقيق "فريضة العلم على كل مسلم ومسلمة" ولا رفع مستوى الشعب ثقافياً انما كان ذلك كله بقدر ما يتم للحاكم الفردي المستبد من مظهرية الدولة وابهة البلاط والعناية فيه موجهة إلى ما يجري عُرفهم بالاستكثار منه والحقوق الاجتماعية البشرية الناس غير مقررة ولا مؤادة بل الاقوياء يأكلون الضعفاء ولهذا إثارة في خلقيتهم الفردية والعامة وفي نظرهم إلى الحياة وشيوع التشاؤم واليأس المطبق او المجون الفاحش واللهو العابث، ويمكن القول في طمأنينة أن من اسباب اغلب الثورات التي شهدها المجتمع الاسلامي وقتئذ كان هذا الاحباط والبؤس والرق في مجتمع ممزق مرقع.

ان المتقدمين ذكروا أن أبي العلاء في بعض كتبه جواب عن مسائل صرفية سأله عنها بعض طلبته، نجم عن سوء الحالة الاقتصادية امراض نعرفها سواء لنظرة الحياة او انتظار المباغتات، وفواجع القدر والتغلب وعدم استقرار الحياة الروحية العامة نحن امام شتات واهٍ منتثر لا يعرف وحدةٍ يلتقي حولها منذ امسى خليطاً لا امتزاج فيه وبدراً لا وحدة له تتداعى في داخله شعوب شتى وتتصادم فيه المذاهب متناكرة وتتقابل فيه قوى متناحرة عرب، عجم وترك واخلاط من الوان وعصبيات يتداولون الحكم ويتنازعون السلطان وليس ثمة في هذا المجتمع العريض تقاليد مرعبة ولا مرعية ولا معنى اجتماعي مستقر، انما هو تنازع عار على السلطان والجاه

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط٥، بيروت، دار الجيل، ١٩٨١م، ص١٨٨.

والثروة يبلغه خليط من هؤلاء، يدركه من يدركه بالقوة او المكر او الاغتصاب، يدعيه من يدعيه باسم السيف او الدين او العصبة الغالبة[1].

فنرى سقط الزند متأثر بالحياة السياسية والاجتماعية التعسة مؤثر فيها لتعطي التاريخ تفسيره ومنطقه فقد يغلب على الظن بعد الذي ذكرنا آنفاً عن السلطان الديني الذي عرفناه في حديثنا عن السياسة قاهراً على ضعفه غالباً مع وهنه يبسط حكومته على الأقاليم بفرض طاعته على الأمراء الملوك اقول: قد يغلب على الظن ان ذلك السلطان قد خمن الجانب الديني في الحياة الفاسدة، من الضعف الوهن لكنه في الواقع كان يحمل في ثناياه عوامل الوهن.

ذلك ان التدين لم يكن في مجتمع العصر ذا قيمة ثابتة او معنى باق كريم انما صار إلى لون مذهبي تؤثر عليه الاعراض الطارئة على المناخ العام في الدولة الواسعة ولا يتغير بتغير الامر الحاكم وما اسرع ما كانت تتغير وتتبدل، أبو العلاء المعري في حقيقته كان شاعراً مطبوعاً على الجودة فجعل عقله رقيقاً على شعره[2]، كما يقول الجاحظ: وكان ذلك فيه جبلة وطبعاً ولم يكن متكلفاً تكلف المحدثين، ويقول ابن رشيق ومن الشعر المطبوع ومتضرع والمطبوع هو الاصل الذي وضع اولاً وعليه المدار المضوع، ان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلف تكلف اشعار المولدين، ولكن وقع هذا النوع الذي سموه صنعه من غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل بعد ان عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع أبي العلاء المعري ديوانه سقط الزند على وجه التنقيح والتثقيف، ويضع القصيدة[3].

---

[1] رسالة الملائكة، ابي العلاء المعري، شرح محمد سليم الجندي، دار الصادر، بيروت، د. ط، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٢.
[2] البيان والتبيين، الجاحظ، ط١، دار صعب، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٤٩.
[3] مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تحقيق حجر عاصي، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٩١م، ص٥٢٤.

وتمتد جذور هذا الفساد الديني إلى اغوار بعيدة منذ انهارت بسقوط الدولة الأموية، العصبة العربية التي تداعى بها العرب حيناً من الدهر اما تيار الشعوبية الجارفة، فراح الحكام يلتمسون وسيلة إلى نفوس المحكومين بعد ان غلبوا عليهم بدعاوى دينية حل محل العصبية العربية الأولى، واقد اختلطت العصبيات اول الامر في انتساب الخلفاء العرب هذا الفرع من بيت النبوة او ذلك كالذي رأيناه في الاسرة العربية الكبرى التي حكمت باسم "العباس" عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت تحمي عربيتها بدينية جديدة لم تظهر في أسرة بني أمية التي حكمت بأسم العصبية العربية الخالصة[1].

فلما قضي على العرقية في البيت العباسيّ بعهد المأمون ظهرت الدينية في صور شتى وألوان مختلفة متنوعة تجمعت هنا وهناك – في ذلك الملك العريض – طوائف تتداعي بمزاعم دينية بعضها زائف وبعضها دخيل، وبدأ صراع تتقابل فيه المذاهب شتى تحل وتحرم وتلتمس لنفسها حقوقاً شرعية ومزايا خاصة.

جاء عهد "سقط الزند" اثر استقرار الدولة الفاطمية التي اقامت ملكها على اساس عن العصبية المذهبية الدينية دعت اليها في قوة وعنف، ومن ثم لم يكد القرن الخامس يهلُّ حتّى شهد نفراً من أعلام الدولة ببغداد يشغلون بالقدح في نسب الأسرة الحاكمة في مصر الكبرى حواضر الإسلام ذلك وقد سجل محضر القدح في بغداد عام ٤٠٢هـ.

ثم إن أبا العلاء المعري تضافرت عليه مع علة العمى على أخرى، وهي الدمامة فقد كان مجدوراً ناتئة احدى عينيه، قبيحاً مرآه، ضئيلاً هزيلاً تقتحمه العين، وهذا النقل يؤيده ما ذكروه عن أبي العلاء ان احد الناس تخطاه في زحام الدخول إلى

[1] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٢٤٧.

مجلس الشريف المرتضى ولزّه جانباً، ودعاه كلباً فانتعل أبو العلاء وقال: (الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما[1]).

ثم جاوز هذا قليلاً وامضِ لنشهد ذلك الملك العريض الشامخ الذّي اقامته الدعوة الفاطمية واسمع منابر المساجد الاسلامية في مصر وتونس وفي الشام والحجاز بل بغداد نفسها كما حدث من فتنة البساسيرِيّ في صميم عصر "سقط الزند" تمجد المذهب الجديد وتؤذن بـ"حي على خير العمل" ويدعو للأئمة الظاهرين من آل فاطمة رضوان الله عليهم وتتهم معارضيهم بالمروق والكفر.

تسمع هذا فتكاد تحسب ان اصول المذهب الفاطمي قد استقرت وان اركانه قد ثبتت فلا عليه بعد ذلك ان مضى حاكم او مات داع وطعن في نسبه عدو.

لكنك اذا تابعت مشاهدة مسرح الأحداث بعد عهد "سقط الزند" رأيت المذهب الفاطمي الذي اقام مثل تلك الدولة القوية الحاكمة، يتقوض وينهار حين مضى دعاته الاقوياء فاتخذت الدعوة التي ظن انها لن تخمد، غدا اعتناقها كفراً ومعصية وعدّ هدمها جهاداً في سبيل الله وهذه قيثارة الزمن التي انشدت للمعز الفاطمي العبيدي قوله:

مَا شِئتَ لا مَا شَاءتِ الأقدارُ *** فَاحّكُم فأنَتَ الواحِدُ القهّار

بل هذا شاعر الأيوبيين يمجد جهادهم في تطوير الإسلام من الروافض ادعياء الفاطمية:

وقَدْ دنستْ منها المنابَرَ عُصبةً *** يُعافُ التقّىُ والدّينُ منهم ويأنف

هكذا يسمى كفراً ودنساً ومعصية ما كان بالأمس إيماناً وطهراً وطاعة، بل هكذا تقوم المذاهب الدينية في ذلك المعترك على غير أساس من قيم معنويّة ثابتة، فهي

[1] اوج التحري عن حيثية المعري، دمشق، ط الترقي، ١٩٤٤م، ص٩.

مثل سواها هدف التجريح والامتهان وهي كغيرها من المذاهب تخمل بخمول دعاتها وتوطأ بالأقدام ساعة ينزلون عن عروشهم لا حرمة لها تبقى عليها لا سند لها من مثل وقيم ثابتة يحميها من المصير التّعس.

أين كانت حلب من هذا الشتات الممزق المنتشر؟ وأين كان "أبو العلاء" في ذلك الخضم المائج بشتى التيارات؟

"أما حلب فقد كانت من كبريات حواضر الشّام والشّام من قديم الزّمانِ يقف بين العوالم المتدافعة والأمواج المتنافرة هو في الجاهليّة بين العرب والرّوم واليونان والفرس، وهو في العصر الإسلامِيّ بين الحجاز والعراق، وهو هنا في عصر سقط الزند بين العباسيين والفاطميين"[١].

وهذا الملتقى المضطرب كانت تصطدم فيه الآراء المتناقضة والأهواء المتعارضة، وهو حائر لا يدري إلى أي الجانبين يميل وإلى أي الفريقين ينحاز وقد سمع الشام من هؤلاء وهؤلاء، وأثار فيهم الريب والشكوك في قيم الأخلاق في صحة هذه الدعاوى الدينية التي كانت تتصادم عنده.

ولعل هذا يفسر لنا – إلى حد ما – موقفه من الأحزاب الدينية التي جعلت الدين وسيلتها إلى الحكم، فقد رأى منذ الزمان الأول أن تفسير الدين تحدده المصالح الشخصية والإعتبارات الطائفية، وفي الشام أولى الأميون قديماً وبعيداً عن آل على وبني طالب وبني الزبير فقد أقاموا على الرغم من هؤلاء جميعاً لهم في ذلك المجتمع المقام الديني الأول وبهم تحف أضواء بأمره من أكرم بيتٍ في قريش.

[١] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٢٤٤.

هكذا كانت الشام من قديم الزمان فإذا دنا عصر "سقط الزند" فاليوم شبيه بالأمس أنه واقع بين قوى ذلك العالم المالج الذي صورناه من قريب بين السلطتين المتنازعتين[1].

ينظر عن يمين فإذا العراق غير بعيد منه يميد ويضطرم شغله الشاغل محاربة العلويين وقتال الخوارج كيد للفاطميين، وينظر عن يسار فاذا مصر قريبة بل واصلة اليه حاكمة فيه همها الاكبر تجريح بني العباس وهدم ملكهم، وأبو العلاء يتنفس في هذا الجو وعلى بابه تلطخت الامواج ولقد ولد في صميم المعركة سنة اقيمت الدعوة بالحرمين "للمعز العبيدي" وقطعت حطبة بني العباس وحدث قبل مولده بثلاث سنوات ان اصطدم المذهبان في دمشق وكانت الجولة الأولى العبيدين وبين أبي القاسم أو بين عسكر الفاطميين، كانت الموجتان تصطخبان على باب أبي العلاء وهو منطوٍ على همومه منعزل مجرد للعبادة والتأمل تأتيه رسل هؤلاء أنباء وانباء أولئك الفاطميون هناك ينادون بأن الأنثى لا تكون عاصية بنفسها وأن الخلافة حق لبني العم دون الإناث.

قال شاعرهم:

أنّـى يَكـونْ، ولـيسَّ ذَاكَ بِكَـائَنٍ *** لبنـــي البَنـــاتِ ورَاثـــةِ الأعمّـــامِ

ومثل أبي العلاء من يحسّ هذا ويخرج إلى جانبه خلافة عباسية قائمة بايعها جمهور العالم الاسلامي ورسخها في نفوس القوم عمر طويل اوشك على ان يكمل قرنه الثالث، وامامه – بل في دياره – خلافة فاطمية فتية قوية في عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها قد التف حولها الناقمون الغضبون والطامعون المرتزقة والمغامرون وابدتها في النفوس ايضا ايحاءات غيبية وهمسات سرية آمال ونذر ووعد ووعيد

[1] تجديد ذكرى ابي العلاء، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص٤٤.

وحفت بها اضواء تنبعث من بعيد ناقلة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ما وعد به آل البيت من رضوان ونعيم وتنذر من يحاربهم بحرب من الله ورسوله ونال في الآخرة عذاب اليم[1].

الحياة الأدبية في حقيقتها هي تمييز هوية العصر الإسلامي إن كان هذا العصر به أدباء وعلماء كبار أمثال الذين عاصروا أبا العلاء المعري من مفسرين وشعراء وادباء ونقاد وفلاسفة نجد هؤلاء على رغم اختلاف أساليبهم وتعبيراتهم وأفكارهم وشخصياتهم إلا أننا نجد شاعرنا أبا العلاء كأنما جمع ملامح هذه الشخصيات في شخصية المفكر الشاعر الفيلسوف، فنجد تصوير طه حسين وابرازه لهذا العصر إشارة إلى تبيين شاعرية أبي العلاء وشعرية خطابه النثّرِيّ والفكرِيّ والفلسفِيّ.

الحياة الأدبية والفكرية:

وجدنا انفسنا مضطرين – قبل المضي في بياننا لها – إلى الوقوف عندما قرر طه حسين من ازدهار الحياة الادبية في عصر أبي العلاء وهي حياة رآها الاستاذ الكبير وضاءة متلألئة لا يشبهها الا سوء الحياة السياسية في ذلك الحين، فإذا أخذ في تاريخ العصر احداهما اديب والآخر سياسي، وكان استثارة الاديب وابتهاجه مقرونين إلى العبوس السياسي واكتئابه، وذلك يرى اعلاماً للعلم ترتفع وصروحاً للأدب وهذ يرى كلمة تتفرق وعصا تتشقق ودولة تنقض وبناء سياسياً ينهار.

والواقع ان الناظر إلى القرنين الرابع والخامس تبهره تلك الأسماء اللامعة للأئمة الأعلام من رجال اللُّغة والأدب وما ظنك بعصر شهيد من رجال التاريخ والأدب الخطيب البغدادي، والبديع الهمزاني، الثعالبي، الاصفهاني، ابن عبد ربه، ابي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني، وابي حيان التوحيدي، وابن النديم، والآمدي،

[1] رسالة الغفران، ابو العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٦٦.

الصاحب بن عباد، وابن قتيبة، وابن رشيق، وابن شرف القيرواني، وابن حزم القرطبي وابن عبد البر[١].

وعرف من الشعراء المتنبي، وابي فراس، وابي العلاء، والشريف الرضي والتهامي، وابن هانئ الاندلسي، ابن زيدون، وابن شهير، ومن أئمة اللُّغة الازهري، وابن دريد، وابن فارس، ابن جني، والجوهري والسيرافي[٢].

"بل ما ظنك بعهد خلف لنا من ذخائر العربية كتاب الصناعتين وديوان المعاني، ودلائل الاعجاز، واسرار البلاغة والوساطة، والنزهتين والمجمل، الصحاح، الاغاني، العقد الفريد، اليتيمة، الخصائص، العمدة، الامتاع، المؤانسة، سقط الزند رسالة الغفران، رسالة الملائكة، رسالة الصاهل والشاحج، الفصول والغابات، واللّزوميات"[٣].

اسماء لامعة دون ريب وثروة ادبية لا شك في خصبها وغناها لكني اخشى ان تبصرنا فنرى رأي الذين فصلوا بين الحياة السياسية والحياة الادبية، او وصلوا بينها بطريق غير منطقي ولا مألوف فجعلوا الأولى هي منحطة منهارة تثمر حياة ادبي وضاءة متلألئة.

اما نحن فلا نذهب مذهبهم الا نرى الحياة الادبية في ذلك العصر– في كل عصر– الا صورة صحيحة صادقة تعكسها الحياة العامة في فنون الأدب، كما لا نسلم بأن الحياة الأدبية قد كانت في ذلك الحين بريئة من المرض سليمة من الضعف خالصة من الشكر والنكر، وهل كان من الطبيعي ان تتنفس تلك الحياة الأدبية والعلمية هكذا ملء الصحة والنقاء في ذلك المناخ المريض الموبوء[٤]؟

---

[١] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، ط٨، ذخائر د. ت، ص٢٥٩-٣٥٤.
[٢] رسالة الغفران، مصدر نفسه، ص٢٤٧-٥١٧.
[٣] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، عائشة بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص٦٤ – ٦٧.
[٤] من محاضرات استاذ الأمين الخولي بكلية الآداب: والتفسير الادبي لتاريخ مصر في القرنين الثالث والرابع.

اننا لا ننكر على العصر غناه باؤلئك الاعلام من رجال الأدب، وتلك الثروة الفكرية الكبيرة لكنا لو عرضناهم على الموازين الضابطة للفن والحياة لوجدنا ان اكثرهم كانوا يعانون الشعر والنثر بنفوس مستغلقة غير متفتحة، وقلما تصف روائع الحسن في هذا الكون من حيث ما لها من وقع على النفس او انفعال بها بل تصفها بغير ما تعلم التقاليد التلقينية بما هي مرتزق ومكتسب، او مظهر براعة ودليل اقتدار ولا بما هي متنفس ومتذوق ومن هنا كان ما تشكوه من جمود الفن واستصحبته اذ يقف عند ظواهر الأشياء ولا يمتد بصره ولا يتطاول بصيرته إلى لبابها وجوهرها، ولا يصغي بشيء من ايحائها، ولعلك لو خليت القرن الخامس ونظرت إلى القرن الرابع كان يتضح عصر "سقط الزند"[1].

فما كان الشعر في ذلك الوقت ترجمة عن إعجاب او تعبيراً عن تأثر، وما يمدح الشاعر هنا يوحي العاطفة او دفع وجدان، وما يصف في الممدوح جمالاً يراه او كمالاً يقدره وانما ينظر إلى الدنيا والناس بعيون أولئك الذين جرت بأيديهم المقادير في الارزاق والاقوات، ومن ثم فهو لا يعالج الشعر الا من حيث كونه مكسباً للرضا ممكناً من العطية فاتحاً لخزائن أولئك الرازقين[2].

إلى ذلك المنحدر صار بعض الفن في عصر "سقط الزند" ونبادر اننا نتحكم الاخلاق في الفن ونزنه بموازينها، ونفرض شعر هؤلاء بما هو متعارض مع احكام الخلق انما نرفضه بمقاييس ادبية خالصة ونحكم إلى الموازين الفن فيما نأخذ وندع من هذا الشعر، نرفضه لأننا لا نراه كما يقضي الفن – وحتى عاطفة او نشاط وجداني او تعبيراً عن شعور، او تفسيراً عاطفياً للحياة انما هو صناعة لفظية او تزييف للأداء والمشاعر ولا يستطيع الفن ان يقيله بحال اذ الفنية قوة وليست مساومة عليه.

---

[1] تجديد ذكرى ابي العلاء، مصدر سابق، ص٤٤.
[2] شذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي، ط٣، ب. ت، ص٣٢.

ولم ينج الأدب اذن من النكر الذي شاع في الحياة العامة ولم ينفرد دون جوانب الحياة الاخرى بالسمو والرفعة وآلاء وانما اصابته عدواها فاذا فيه من الشعر الكثير مع بعض قيد لا نستطيع ان ننكره.

فلئن كانت الحياة التي وصفناها تطاولت ببعض الناس واغرتهم بالطموح إلى اعلى المناصب واعتدلت بآخرين فأقنعتهم بالوقوف على ابواب السادة والحكام راضين بما يلقون اليهم من فضلات موائدهم، لقد انتهت بنفر آخرين إلى البأس او ما يشبه البأس دفعتهم إلى الانطواء على انفسهم بنسب تتفاوت ويتفاوت استعدادهم الطبيعي لهذا الانطواء تختلف باختلاف ظروفهم الخاصة ومدى اعانتها على مثل ذلك.

فمنهم سادر في احلام اليقظة يعوض بها ما فاته في دنيا الواقع، وآخر هائم في متاهات الوهم وغيابات الخيال يلتمس العزاء عما لقي من خيبة واخفاق، ثالث وشاطح في طريق الصوفية ينشد عالماً آخر له سبل غير التي عرفتها الدنيا ومقاييس غير التي يتعامل بها الناس في المعترك المائج، ورابع شارد ضال هو اليوم هنا وهو غداً هناك لا يستقر به على الأرض مكان.

واذا كنت تجد في الشعر المكتسب الرخيص وفي الهجاء الوضيع المسفّ وفي العناية السرفة بالزخرف الشكلي صدى الحياة الفاسدة واختلال موازينها واضطراب قيمها فانك تجد في اشعار الحالمين واوهام الخائبين وشطحات الهائمين وجراثيم الرواسب المستقرة في اعماقهم جميعاً من هذا اليأس والتعب والحرمان، وترى ظلال تلك الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية البائسة التي مرت بنا صورتها وتسمع صدى المعارك الدينية المحتدمة التي مضى الحديث عنها آنفاً.

هكذا نرى الأدب في هذا العصر قوي الاتصال بجوانب الحياة الأخرى، نجد في اليأس المظلم الذي رأيناه يسود الجو العام مفتاح كثير من الثروة الأدبية لذلك العهد نفتح به باب فهمها وتفسيرها فتدرك ما قد نجد فيها من زيف وخطاط واعتقال بالصنعة اللفظية، ونعلل ما افرزت من فنون يائسة او ساكبة ناقمة او زاهد تتطلع إلى الآخرة وتهدى من الأولى.

فاذا شئت ان تلتمس صورة الحياة العامة الفاسدة المضطربة في ذلك العصر فلا تترك الأدب ظناً بأنه قد نجا من شرها وانما التمسها لذلك في كل ما ترك لنا العصر من شعر غنائي حزين، ومن احلال السادرين المنطوين على انفسهم التائهين في غيابات الوهم والخيال ثم التمسها عند صناع الشعر ومحترفي الادب ممن يقرعون للتحرف، ينصرفون إلى التفنن في الاشكال يحسبون الفن معاناة الضعة وصدى التقليد المتبع.

من هنا نرى في ايثار أبي العلاء للعزلة صدى للفساد العام في عصره وعلامة اليأس الناتج من هذا الفساد الذي عاناه الرجل وفزع منه، كما نرى في العصر تفسير صنعته وصياغته، ولقد قلت –وما زلت اقول– ان "سقط الزند" اثر فريد في تراثنا الفني ليس لأني ابرئه من النقص او انزهه عن العيب، انما اعجب به لأني اري فيه شخصية صاحية وصورة قدمه وعصره، واحد لديه المتعة الخالصة التي يتيحها نص قوي الصلة بالحياة صادق التصوير لعالمه ودنياه.

لقد اخذ "سقط الزند" موضعه في آثار أبي العلاء وفي التراث الفني الانساني بدلالته الصادقة على نفس صاحبه وعلى الحياة من حوله، فلو لم نعرف صاحبه

رسم لنا منه صورة واضحة الملامح بنسبة السمات لمفكر اديب بائس منعزل ممتحن محروم[1].

فن "أبي العلاء" من نكر العصر لمعنى في رؤياه الملهمة استغرق في عالمه النفسي الخالص، ولسلمت لنا تلك المتعة الفنية من شوائب هذا الاعتراض المقحم الثقيل، وما احسب القارئ بحاجة إلى ان يسأل "ابا العلاء" ان يشرح له هذه الكلمة او تلك، فانك لا تسأل المصور البارع كيف اعد لوحته ولا تستوقف الموسيقي ليشرح لك ما يعزف من نغم، ولأرصد هنا صدى الحياة الادبية فيما سجل "سقط الزند" من راي لأبي العلاء يؤيد الذي قلناه تأثر الادب بتلك الحياة التي كانت تمور بالمغامرة والطمع.

يقول عن المتنبي:

وحدثت انه كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: هو من النبوة، أي المرتفع من الارض، وكان قد طمع في طمع فيه من هو دونه وانما هي مقادير يديرها في العلم مدير، وهؤلاء من حضرني ممن كان قبل أبي العلاء في زمانه، وقد تأخر عن زمانه من اهله من كان عالماً فاضلاً:

وانّـــــا ذِكْـــــراهُم هِمُنَـــــا *** لَيِجيئُـــوا عَلَـــى نَسْـــقٍ واحـــدٍ

فمنهم القاضي ابو المجد، محمد بن عبيد الله، وابو المجد الثاني اخو أبي العلاء وذكره في تجديده، فقال ذكر لي ابنه القاضي ابو اليسر الكاتب انه كان فاضلاً ادبياً فقيهاً على مذهب الشافعي اديباً مفتياً فهذا جهد لا يستطيعه كل الشعراء وانما ان قيل الحرف غير ان ابا العلاء ضيف ذلك الابواب امام الشعراء احسّوا ان هذا التصنيف من شأنه ان يعقد في الشعر وان يقيد من حرية الشاعر وان يبعثه

[1] رسالة الغفران، دراسة نقدية، دكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص٦٨-٦٩.

على الاهتمام بنغمته القافية اهتماماً يؤدي ما قبلها ان يقيم في البيت، اذ يضطر إلى استخدام الفاظ غريبة او نائبة من شأنها ان تقف التدفق الموسيقي او تعطله تعطيلاً[1].

وعلى هذا النحو لم يعجب الشعراء بهذه القيود التي ادخلها أبو العلاء على القافية فقد احسّوا بانها قيود واغلال ثقيلة لذلك نفروا منها نفوراً شديداً وظلوا عند صورة القصيدة القديمة فهي الصورة المثلى التي تبغي للشاعر على حريته إزاء النغم والايقاع المرسوم تامة كاملة[2].

[1] كتاب معجم الادباء، الجزء الثالث، الياقوت الحموي، ص١١١ – ١١٢.
[2] في النقد الادبي، دكتور شوقي ضيف، ط٦، د. ت، ص١٠٤.

المبحث الثاني: حياته ونشأته بجانب عقيدته وآثاره حتى وفاته:

يرى الباحث إن البواعث التكوينية سواء أكانت سياسية او قبلية او ثقافية او جغرافية لها اثر مباشر لشاعرية أي شاعر ما، لذا دراسة حياة الشاعر وتتبع آثاره وتعيين ملامح عصره كلها تمثل عوامل ترفع به بالإبداع في شعره، ولكن عندما يكون هذا الشاعر به عوامل اخرى اثرت به اضافة لتلك العوامل المذكورة مثل أبي العلاء المعري موضوع هذه الدراسة الذي اثر فيه العامل النفسي المتولد منذ صغره بفقدانه البصر.

وغير ما المت به من حوادث تتلمذت تعبيراته الشاعرية والنثرية إلى محطات صدمات الحوادث السياسية التي المت بعصره مما انتج عاملاً نفسياً جعل من اهل النقد حيرةً في تبيين معالم شخصيته، هو شاعر فيلسوف ام فيلسوف شاعر، ام عالم داعية، ام زنديق فاجر في عقيدته التي برزت في كثير من افكاره سواء كان شعراً ام نثراً مما جعل اتجاهه من اهل هؤلاء النقد استفرت في دراسة المبالغة في شعره.

أبو العلاء المعري هو أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان بن داؤود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث ابن ربيعة بن ارقم بن انور بن اسحم بن النعمان ويقال له الساطع الجمال بن عدي بن قطفان بن عمرو بن يربح بن خزيمة بن تيم الله بن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن اسحاق بن قضاعة بن تيم الله مجتمع تنوخ من اهل معرة النعمان من بلاد الشام، كان غزير الفضل، شائع الذكر وافر العلم غاية الفهم علاماً باللُّغة جاد بها بالنحو جيد الشعر جذل الكلام شهرته تعمي عن صيغته[1]، وفضله ينطق بسجيته، ولد بمعرة النعمان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة واعتل بالجدري التي ذهب فيها بصره سنة سبع وستين وثلاثمائة، وقال الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة، ورحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين

[1] معجم الادباء، د: ياقوت الحموي، ج٣، جميع النهج مختومة بخاتم ناشره، ص١٠٧-١١٩.

وثلاثمائة، اقام ببغداد سنة وسبعة اشهر ثم رجع إلى بلده فأقام ولزم منزله إلى أن مات يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول سنة تسع واربعين واربعمائة في ايام القائم، وكان في آبائه واعمامه ومن تقدمه من اهله وتأخر عنه من ولد ابيه ونسله فضل وقضاة وشعراء ان اذكر منهم من حضرني لتعرف نسبه في العم كما عرفت ما اعطيه من الفهم كان سليمان بن احمد بن سليمان جده قاضي المعرة ولي القضاء بحمص وبها مات سنة تسعين ومائتين، ثم ولي القضاء بعده ولده ابو بكر محمد عم أبي العلاء وفيه يقول الصنوبري الشاعر[1]:

يَـــأبى يـــا بِـــنْ سُـــلِيمَانْ *** سُـــــــــدتَ تَتُوخَـــــــــا
وهُـــــم السّـــــادة شَـــبَانا *** لَعمْـــــــــرِي وشِـــــــيُوخَا

ثم بعده اخوه ابو حمزة عبد الله والد أبي العلاء وبعبد الله شعرا في مرثية والده:

إنّ كـان اصَـبحَ مِـنْ اهُـواه مَطَرحَـا *** بِبِـاب حِمْـصَ فَمَـا حُزنِـي بِمَطـرحٍ
لـو بَـانَ ايَسَـر مَـا اخُفيِـه مِـنْ جَـزْعٍ *** لَمـاتَ اكثـر اعـدائي مِـنْ الفـرح

وتوفي عبد الله بحمص سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ومنهم ابو المنجد مّحمد بن عبد الله اخو أبي العلاء وكان اسن من أبي العلاء وله ايضا شعر منه في الزهد.

كَـــرم المُهِمـــين مُنَتَهـــى امَلـــي *** لا نِيتّـــي أجَـــرٍ ولا عَمَلـــي
يـــا مُفْضـــلاً جَلّـــت فُواضِـــله *** عَـنْ بُغْيتـي حتّـى إنقَضَـى أجلـي

هؤلاء من حضرني ممن كان قبل أبي العلاء وفي زمانه وقد تأخر عن زمانه من اهله من كان عالماً فاضلاً وانا ذاكرهم ههنا ليجيئوا على نسق واحد فمنهم

[1] معجم الادباء، ياقوت الحموي، مصدر نفسه، ص١٠٩.

القاضي ابو المجد محمد بن عبيد الله وابو المجد الثاني هو اخو أبي العلاء وذكره العماد[1].

ومنهم ايضا القاضي ابو مسلم وادع بن عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن سليمان كان أبو العلاء عم ابيه، تولى القضاء بمعرة النعمان وكفر وطاب وحماة وكان مشهوراً بالكرم، ومولده سنة احدى وثلاثين واربعمائة وله رسائل حسنة وشعر بديع منه:

قائلـــةُ مـــا بَـــالَ جُفْنـــك أرمَـــداً *** فَقلتُ في الأحشاءِ مِنْ قَوْلَها لُدغ

ومنهم ابو عديّ النعمان بن مسلم وادع من اهل العلم والفضل، وهو القائل:

يَا ايّها المُلَاك لا تَبرحُوا الأملاكِ *** وارجُوها إلى قَابِلِ

فالعامُ قَدْ صَحّت ولكنها *** للعَدلِ والمَشرقِ والعَامِلِ

ومات ابو عدي بعد سنة خمسين وخمسمائة ومنهم ابو مرشد سليمان بن علي، بن محمد بن عبد الله بن سليمان ولى القضاء بمعرة النعمان وانتقل إلى شيرز بعد اخذ الفرنج المعرة، وتوفى بها وله رسائل وشعر منه قصيدة القزم في كل كلمة حرف النون أولها:

نَزّه لِسَانك عَنْ نَفاقِ مُنافقٍ *** وانْصح فإنْ الدّينِ نُصح المُؤمنِ

وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي يزعم انّه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن بعده مثل ابي نواس وابي تمام، وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى وجعل ينبع عيوبه فقال المعري لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله: لك يا منازل في القلوب منازل، لكفاه فضلاً ففضل المرتضى وأمر فسحب برجله واخرج من مجلسه، قال لمن بحضرته أتدرون

[1] معجم الادباء، ياقوت الحموي، مصدر نفسه ،مرجع سابق، ص١٤١.

اي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة؟ فإن للمتنبي ما هو اجود منها لم يذكرها فقيل النقيب السيد اعرف فقال اراد قوله في هذه القصيدة:

اذَا اتْتكَ مَذمْتي مِنْ نَاقصٍ *** فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

ولما رجع إلى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه وسمى نفسه رهين المحبسين يعني حبس نفسه في المنزل وترك الخروج منه وحبسه عن النظر إلى الدنيا بالعمى، وكان متهماً في دينه يرى رأي البراهمة لا يرى افساد الصورة ولا يأكل لحماً ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور، عاش شيئاً وثمانين سنة لم يأكل اللحم منها خمسة واربعين سنة وحدثت انه مرض مرة فوصف له الطبيب الفروج فلما جيء به لمسه بيده وقال: استضعفوك فوصفوك، هلا وصفوا شبل الاسد.

وللمعري من الشعر ثلاثة دواوين هي: (سقط الزند) والمشهور بأنه اشتمل على شعره ايام الشباب، وان كان ذلك موضع بحث والدرعيات وهو ديوان صغير يشتمل على اشعار وصفت فيها الدرع خاصة، وقد طبع ملحقاً "سقط الزند" على ان الدرعيات لم تنظم الا في الطور الثالث من حياته واللزوميات هي اكبر وان الدرعيات هي اكبر الدواوين الثلاثة، اجلها خطراً نظمت كلها في الطور الثالث فتمثلت حياة عقله ووجدانه وخلقه احسن تمثيل له من كتب منها (الايك والغصون، تاج الحرة، عبث الوليد، رسالة الملائكة، شرح ديوان المتنبي، رسالة الغفران، الفصول والغابات، ملامح العزيزي، الزهر النابع، استغفر واستغفري، نجد الزجر، السجع السلطاني، ذكرى حبيب، رسالة الطير، رسالة الهناء، رسالة الصاهل والسابح، معجزة احمد) وقد احصوا هذه الكتب فاذا هي خمسة وخمسون كتاباً في اكثر من اربعة آلاف كراسة تناول اللُّغة وفنونها والادب والوانه والونط وانواعه، ضاع اكثرها ولم يصلنا الا القليل لم يطبع على قدر معرفتنا الا اللزوميات وسقط الزند والدرعيات ورسالة الغفران الزجر

النابح الوليد ورسالة الملائكة والفصول والغابات رسالة العناء رسالة الصاهل والساجح ومجموع رسائل أبي العلاء[1].

كما عرف برهين المحبسين علماء ولزومه بيته لا يفارقه قال عن نفسه انه رهين المحبسين (الوافر):

أرانِي في الثَلاثةِ مِنْ سُجُوني *** فلا تَسألِ عَنْ النَبّأ النَبِيثُ
لِفقْدي نَاظَرَيَ ولُزومَ بيتي *** وكَونْ النّفسُ في الجَسَد الخَبيثُ

وكان رحمه الله نابغة في العلم واللُّغة ولم يأت عالم من علماء اللُّغة منذ تدوينها بمثل ما اثر به أبو العلاء فقد احاط باللُّغة العربية احاطة تامة واستعمل كل الفاظها في شعره ونثره وابدع فيها كأحسن ما يكون، كما لم يجمع لأحد جاء قبله ام بعده مثل ما اجتمع لأبي العلاء من اتقان العلم وسعة الثقافة، عمق المعرفة فيحكم المعرة ما كان شخصاً عادياً بل كان من عظماء الرجال.

ويكفيه سمو مكانة ما جعل ثمانين شاعراً يقفون على قبره يرثونه منهم الامير الحسن بن عبد الله بن حصينة الذي يقول في مطلع قصيدته[2]:

العِلمُ بَعدَ أبّي العلاءِ مَصنعُ *** والأرضْ خالية الجَوانِبْ بلقَع

اما أولئك الذين انكروا عليه آدميته او الصقوا به تهماً لا تثبت فهم ممن لم يعرفوه حق المعرفة او ممن يبغض يكفي ان تنظر لعارفيه واقوالهم فيه لتتبين الحقيقة التي عبر عنها الصاحب كمال الدين بن الغريم في كتابه "كتابة العدل والتحدي في دفع الظلم والتحري عن أبي العلاء المعري" اذ قال انه اعتد من ذم ابا العلاء ومن مدحه، فوجد كل من ذمه لم يرى الا صحبه، ووجد من لقيه هو المادح له.

[1] معجم الادباء، ياقوت الحموي، مصدر نفسه، ص١٨٩.
[2] معجم الادباء، ياقوت الحموي، مصدر نفسه، ص١٩٤.

يقول ابن الوردي في كتابه "تتمة المختصر في اخبار البشر": (وقد يعذر من احبه، وحرم سبه، فانه اطلع على صلاح سره صار اليه في آخر عمره)، وقيل ان بعض المكتبات الايطالية اهابت بالأدباء من العرب ان يوافوها باسم الاديب الذي تجم فيه خصائص العبقرية العربية، فأجمعت الآراء على انه هو أبو العلاء.

اعتمد رحمه الله على العقل الحكيم الحر المبدع ورآه اسمى ما وهبه الله عز وجل للبشر، فاخضع كل حركة له وأخذ فهمه على طريقه، ان كان قد شكك احياناً فلا يعني انه كفر، فكل الفلاسفة شككوا بالغيبيات امام قصور العقل البشري عن ادراكها وفهم مكنوناتها وحقائقها.

وشَاهِد خَالِقِي أنَّ الصَّلاةُ له *** أحل عِندي مَنْ دُرّي ويَاقُوتِي

اما تشاؤمه وتفضيله الموت على حياة لا يرى فيها خيراً ولا يؤثر ان يتجنب من يحيا بها، فمرده إلى علته في عماه، احساسه بقلة تقدير الناس له، كاده للحلول الوسط لعصره المضطرب، وقد أوصى بان يكتب على قبره (من المجزوء)[1]:

هذا جناه ابي عليّ وما جنيت على احد.

اما الواقع فانه احب الحياة متفائلاً بالوجود، وان شرور الناس جعلت الدنيا لديه ظلاماً بل جعلته في الاحيان يتمنى لو لم يأت إلى الحياة، وقد التزم أبو العلاء المعري ما لا يلزمه الناس عادة فحرم على نفسه اللحم والعسل والزواج والتزم المشقة في اكله وملبسه وعيشه والتزم في لزومياته هذه ان تكون القافية على حرفين، وان تشمل اشعاره كل حروف الضاد وما يلحقها من الفتح والضم والكسر والسكون، فقد كان كل حرف باستثناء الألف اربعة فصول فالباء المضمومة فصل للمفتوحة فصل

[1] ديوان لزوم ما لا يلزم (اللزوميات)، ابي العلاء المعري، شرح حسن احمد، ط لبنان، ٣٦٣-٤٤٩هـ، ص٨-١١.

للمكسورة آخر، وكذلك للباء الساكنة هكذا وفي هذا دلالة على مقدرة نحوية وعروضية وفلسفية لا تخفى على احد.

اكثر لزومياته متبين اللفظ فخم الاسلوب ويعج بالمصطلحات العروضية والصرفية والفلسفية والطبية، ويحوي من الامثال السائرة والحِكَم الماهرة ما ستلزم كتاباً لإحصائها وتباينها، هذا ويحتوي الديوان احد عشر الف بيت ضمّنها الكثير من آرائه في الوجود والخليقة والنفس والدين، غير ان ذلك كله كان مصدره الفراغ في عزلته مما حدا ببعض الباحثين نسبتها إلى اللعب العقلي او العبث لإبراز المقدرة اللغوية.

واللزوميات هي احد ديوانين فلسفيين ثانيهما بعنوان "استغفر واستغفري" ويتألف من عشرة آلاف بيت، روعيت فيها القافية الواحدة وهو من كتبه المفقودة ويقول المؤرخون الذين اطلعوا عليه انه على غرار اللزوميات في مضمون اي انه يحمل افكاره بخصوص الدين والسياسة وامور الحياة والوجود.

وهو ينتمي إلى قبيلة تنوخ القحطانية من العرب الاصلية العاربة وبيته بيت علم قَدِم إلى بلده اعلام القضاة والعلماء والادباء جيلاً بعد جيل، ولد احمد بمعرة النعمان من اعمال حلب في مغرب الشمس لثلاثون بقين من ربيع الأول سنة ٣٦٣هـ، بدأ خطوته على الطريق المهيأ لمثله مرجواً لمستقبل مرموق بما تلقى من ميراث ببيته العريق في الفضل والعزة والعلم والأدب، ولكنه ابتلي بصدمة قاسية قبل ان تستقيم خطوته على الدرب اعتل في سنته الرابعة على الجدري فلما ابلى منها الا بعد ان شوهت وجهه بندوب لا برء منها وذهبت بنور بصره فاسدل بينه وبين الدنيا حجاباً اسود لا أمل في انحساره حتى آخر العمر، ومن ذلك الحادث المؤلم في الطفولة الباكرة بدأت رحلة أبي العلاء في هذه الدنيا وقصته معها.

تعثرت خطوته الأولى على الطريق فقاده ابوه إلى عالم يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق امام بصره، قرأ القرآن على ائمة من شيوخ القراءات، سمع الحديث من ابيه وجده وجدته وجماعة من محدثي بلده في زمانه، وتلقى علوم العربية على ابيه وعلى جماعة من اصحاب "ابن خالويه" فظهر مخايل نجابته وفطنته وما جعل اباه يمضي به إلى حلب وفيها اخواله بنو سيكة حيث تلقى النحو على امام العربية في حلب محمد بن عبد الله بن معد النحوي رواية الشاعر ابي الطيب المتنبي، ومن عهد صباه الغض ظن أبو العلاء انه اهتدى إلى سلاحه في معركة الوجود وعرف طريقه على الدرب، مواهبه تعوضه عن عجزه ونور العلم يمنحه الضياء[1].

في اعتداد واصرار صمم على ان يتحدى محنته ويشق سبيله لا يعوقه فقد البصر وبلغ المدى في مكابرته فرئي في حياة يلعب النرد والشطرنج ويأخذ في فنون الجد واللهو كما يفعل بداياته المبصرون، وبدأ كأن الدنيا له لشطط طموحه واعتداده بمواهبه:

وقَدْ سَارَ ذِكرى في البِلادِ فَمنْ لَهُم *** بإخفاءِ شَمسٍ ضَوؤهَا مُتكَاملِ
يَهُمْ الليالي بعض ما انا مُضمرٍ *** بِثقلٍ رضوى دون ما انا حَاملِ
وانّي وإنْ كُنتُ الأخيرَ زمَانُه *** لآتٍ بما لَمْ تستطعه الأوائل

وأملى له القدر فمضى في شبيبه على غلوائه يبهر اهل بلده بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته، ويسرف على احد نفسه بالتفتح للدنيا والاقبال على الحياة مع الولع بالعلم والجد في طلبه[2].

[1] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية دكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص٣١-٤٣.
[2] مرجع سابق، ص٦٣.

وما كان في لطف حسه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته بحيث يغيب عنه عقم هذه المكابرة في تحدي محنته ومكابرة قدرته وقد افلتت منه في ذلك العهد ومضات كاشفة عن عالمه النفسي المجتهد بالصراع بين شد الطموح وعجز الوسيلة، بين ارادة الحياة وخيبة الرجاء، وفيما هو خائر بين البأس والأمل، بين المكابرة والرفض مات ابوه سنة ٣٩٥هـ فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه وفقد الشاب الضرير من كان له اباً صديقاً وقائداً مرشداً فتركته اللطمة في مهب الريح لا يقر له قرار[١]:

لقدْ مَسَخَتْ قَلبي وفُاتّكَ طَائراً *** فأقْسَمَ أنْ لا يستقرَّ على وكْنِ
يَقضّي بَقايَا عَيْشِهِ وجناحُه *** بحيثُ الدّواعي، في الإقامةِ والظّعنِ
كأنَّ دُعَاءَ الموتِ باسمك نكزةُ *** قَرتْ جسدي والسُّمُّ ينفثُ في أذني

وكان حين تلقى اللطمة في الثانية والثلاثين من عمره، وفي غربته النفسية اتجه تفكيره إلى بغداد عاصمة الدنيا فشق عليه ان يفارق امه في معرة النعمان وقد كانت تفيض عليه من حنانها ما يؤنس حياته الموحشة ويضيئ شعاعاً في ظلمة دنياه، وطال تردده بين رغبته في السفر واشفاقه من فراق امه، واستغرق تأهبه النفسي للرحلة إلى بغداد نحو ثلاث سنين ثم جمع امره فشد الرحال اليها ليجد نفسه في دوامة الموج الهادر لمجتمع العاصمة، لماذا ألقى بنفسه وهو الضرير المستطيع بغيره في ذلك الخضم الهادر؟ وماذا لقي في العاصمة الكبرى من صدمة زلزلت كيانه ودفعت به إلى اصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان[٢]؟

ظاهر الامر انه بعد ان يهد اقليم حلب بعلمه وادبه احب المقام بدار العلم لمكان دار الكتب بها كما يقال، ولكن وراء هذا السبب الظاهر معلن عاملاً خفياً في اعماق وجدانه، كانت الايام قد انضجت وعيه لذاته وكشفت له عن عقم مكابرته

[١] سقط الزند، ابو العلاء المعري، ط بيروت، ١٩٦٣م، ص١٩٣.
[٢] سقط الزند، ابو العلاء المعري، مصدر نفسه، ص١٦-١٧.

ولكنه يقاوم دواعي القنوط ويفر من الاستسلام لا هزيمة فيما اراد من تحدي الدنيا ومعاندة القدر حتى بدا له آخر الامر ان يحسم معركته بالسفر إلى بغداد ليبلو طاقته على المعنى في المقاومة والمعاندة، واغلب الظن انه صفى الرحلة حسابه مع طموحه فلم يستبق منه الا الامل في المجد العلمي والجاه الادبي، واذا كان قد ظفر في اقليم حلب والشام بشهرة بعيدة المدى فقد بقي ان تعترف به العاصمة الكبرى، فشد برحاله اليها يحدوه رجاء في ان يفر من الهزيمة التي احس بوادرها في اعماق وجدانه، وامل في ان يفرض وجوده على الدنيا والناس، وتزود للرحلة باسلحته التي يملكها، ذكاء شبه اسطوري وفقه راسخ لعلوم العربية والاسلام وادبية مبدعة في محملة "القطيعة" على شط دجلة كان منزله[1].

ومن ماله الذي معه من المعرة كان يدبر ضرورات عيشه، وتوافد عليه البغداديون يختبرونه غير مكتفين بشهادة حملها معه او سبقته إلى مدينة السلام، فالذي يبهر الناس في المعرة او حلب والشام قد يكون في العاصمة الكبرى غير لافت ولا مثير ولابد من ان يكون لأهل بغداد الكلمة العليا فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب حفظه وندرة ذكائه وقوة شاعريته، واجتاز الامتحان بنجاح واقر له البغداديون بانه اعجوبة الزمان في حفظه وعلمه للمقام فيها:

الادب لا جدوى منه الا عزف الرؤساء وتمرغ على اعتاب السادة ذوي الجاه والنفوذ. العلم ان مجتمع العاصمة في عصره يقدر من يعرف كيف يأتي بالذئب من ذيله اكثر من تقديره من يعرف له سبعين اسماً او ثمانين. عفة الضمير وكرم الخلق؟ يا لها من بضاعة نافقة في بروج فيها النفاق والزيف والتضليل والدجل[2].

[1] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٣٣.
[2] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر نفسه، ص٣٥ - ٣٦.

واجمع امره على الانسحاب والعزلة وهو ما يزال في خضم المعترك وقد عرف ان اسلحته مغلولة تغلبها اسلحة اخرى لا يملكها، من مكر الحيلة ونعومة المداهنة وبراعة النفاق ولؤم الاحتيال، واحس ان لا مكان له في دنيا الناس وقد اعوذه عمى البصيرة وبلادة الشعور والضمير ومرونة في الخلق والطبع يتلون بها في دنيا الثعالب والذئاب وموكب المنافقين والمهرجين.

وبدأت رحلة الاياب وهو في بغداد مقيم، انسحب منها نفسياً حين ادرك بملء يقينه ان المكابرة ضالة وان الامل في الري سراب وان التحدي عقيم[1]:

فيا دَارها بالحزن إنّ مزارها *** قَريبُ ولكن دون ذلك أهوالُ
تَمنيتُ أن الخمر حُلتْ للنشوةِ *** تجهلني كيف اطمأن بي حالُ

وهم بالرحيل فتشبث به اهل بغداد محزونين لفراقه وهو اشد منهم حزناً قد لبس الحداد على امانيه الموءودة وطموحه المقهور ومسعاه المغلول وانشد مودعاً دنياه في بغداد[2]:

اودعكم يا أهلَ بَغدادَ والحشا *** على زفراتِ ما يُعينُ مِنْ اللّدعْ
ودَاعَ ضَنَىّ، لَمْ يُستْقلِ وانما *** تَحاملِ، مِنْ بعد العِثارِ على ظلعْ
الَا زودوني شربةً ولو انني *** قدِرتُ، اذنْ افنيتُ دجلة بالجرعْ

في عام اربعمائة لست ليال بقين من رمضان ركب راحلته والقى قياده إلى من يمضي به في رحلة الاياب موزع الخواطر بين حزن على فراق انفس مكان لم يسعف الزمان بإقامته فيه، وشوق إلى راحة البأس ولهفة على لقاء امه التي بلغه انها مريضة بمعرة النعمان[3].

[1] سقط الزند، ابي العلاء المعري، مصدر سابق، ص٢٢٩-٢٣٢.
[2] سقط الزند، مصدر سابق، ص٢٣٦-٢٣٧.
[3] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٣٧-٣٨.

آب الضرير بحسرته إلى منزله بالمعرة ليجد امه قد رحلت عن الدنيا بغير وداع وترنح كيانه بجريح من وطأة اللطمة الساحقة، فيما عاد يجد نفسه الا فيما اجمع عليه امره "عزلة وانفراد"، واوصد بابه لا يأذن لزائريه في الدخول ولو كانوا من ذوي القربى، ثم رق قلبه لضراعتهم ففتح بابه ليستقبل طلاب العلم لتكون اليه رحلة العلماء من مشرق ومغرب، وانقطع للتدريس والاملاء فاذا خلا إلى نفسه في غير اوقات الدرس فللعبادة والتأمل.

وما باختياره كان يلقى زائريه، ولا باختياره كان قراره الصادم بالعزلة وانما حمله عليها عجزه عن نكر العصر وفساد المجتمع، وهنا عليه ان يعيش صائم الدهر وان يبقى رهين محبسيه العمى والعزلة، تسعا واربعين سنة محروما من الزواج والولد وطيبات الرزق، طعامه البقل ولباسه خشن القطن وفراشه سجادته من لباد في الشتاء ومن حصير البردى في الصيف، وكان ايراد يسير يأتيه من وقف بضعة وعشرون ديناراً في السنة يدفع نصفه اجراً للخادم ووراق، ويقيم اوده بالنصف الباقي، ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بضرورات العيش تخلى عما يطيق الاستغناء عنه منها وابى ان يلتمس زيادة في رزقه من اي سبيل وذلك كله قد هان عليه، واما الذي لم يهن عليه فهو مجاهدة ما رسخ في نفسه من حب الدنيا وما ظل يكابد من ظمأ وشغف بها مع اصراره على رفضها إلى آخر عمره وظل يئن من عجزه عن ان يقهر في فطرته حب الدنيا والتماس راحة البأس منها والسلو عنه وان ظن الناس انه وطئها بقدميه من لحظة انسحابه إلى محبسيه.

ومن صميم عزلته يأتينا صوته كاشفاً عن العذاب والمجاهدة وناسخاً ما شاع فينا وذاع من بغضه للدنيا وزهده فيها، احب الدنيا وآلتها لست في وقد يئست من

بلوغها واليأس مريع فإلام الشوق والضلال، وانما انا رجل بلي بالصرى لا يجد مورداً فهو ظمآن ابدا لقوله[1]:

وصدقتُ هذا العيشُ في حُبّي له *** واغتْرني بخداعِه وكذابهِ
عذبُ يُعذبني البقاءُ والرَدَى *** يوم يَخلَصُ مِنْ فُنونِ عَذابهِ

وقال في اللزوميات:

وقالَ الغارسُونَ حَلَيفَ زُهدٍ *** واخطأتْ الظُنونْ بما فرسنه
ورضَتْ صِعَابَ آمالي فكانتْ *** خيولاً في مراتُعها شمسنه

ومن هنا كان عذابه وكانت مجاهدته لم يجد مدى الدهر كما قال راحة من هذيان امانيه، ولا ظفر براحة البأس من دنيا يحبها، وآلتها ليست فيه وذلك ما ينبغي ان نذكره مما يضيء لنا عالمه النفسي ان يكن امتحن بعمى البصر فقد بقي له نور البصيرة، وان كان عاش في سجن موصد فقد ارهفت العزلة وجدانه ومنحته صفاء الذهن ووضوح الرؤية، فكان البصير الذي خبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون إلى اذقانهم في خضمها، المعتزل الذي خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضابون في غمارها.

في بسالة نادرة اعلن صيحة الاحتجاج على المنافقين والمرائين والنفعيين وواجه جبروت الحكام بكلماته الصادقة واعلن الحرب على الذين استغلوا جهل العامة فجعلوا السياسة والدين والعلم والادب مصيدة لرزق غير حلال، وإلى آخر عمره ظل يخوض معركته الشريفة الباسلة في مجاهدة شغفه بالدنيا وتعلقه بها وفي رفض الظلم والبغي والتضليل والأثرة والنفاق.

واذا كانت الجماهير قد تبلد حسها لطول ما سميت من ظلم وفداحة ما تعرضت له من تغرير وتضليل، وما تسلط على وجدانها من إلحاح في تبرير فساد الاوضاع،

[1] رسالة الغفران، ابي العلاء المعري، دراسة نقدية، مصدر سابق، ص٣٩.

فإن ابا العلاء لم يعفها من التبعة ولم يرض لها ان تصبر على الضيم وان ترسف في الاغلال منومة بالزيف منصرفة عمن يدعو فيها بدعاء العدل الاجتماعي والخير العام.

هل كان من المتوقع ان يدعه كل هؤلاء الذين تصدى لخصومتهم يكشف عن غيهم ونفاقهم وزيفهم، وان يخلو بينه وبين الجماهير المضللة يوقظ الوعي والتمرد ويمزق عن وجدانها حجب الغفلة، مثل أبي العلاء من يعد في عصره وكل عصر فاسد خارجاً على المجتمع متمرداً بسلوكه وقوله على اوضاع مقررة ونظم سائدة واعراف مألوفة.

وليس من طبيعة الاشياء ان يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدى ان يدع ابا العلاء يقول ما شاء دون يتصدى له بتحد مقابل ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان، واذ لا سبيل لخصومة اليه لزجره بحرمان او اغرائه بحجز او الحجز على حريته بحبس او نفي فإن في عقيدته منفذاً لخصومه عليه من حيث لا يتوقع مستغلين في ذلك العاطفة الدينية للجماهير موقنين انها ما تكاد تسمع عنه قال سوء في عقيدته حتى تصد عنه وننكره دون ان تتريث لتتحدى التهمة او كتميز حقاً من باطل وقل من احرار الفكر والكلمة من لم يتهم في عقيدة.

وأبو العلاء قد خالف سلوكه جمهور المسلمين فحرم على ما احل الله من طيبات الرزق وامتنع عن الزواج وجهر باقوال تنم عن حيرته واجرى التجريح لرجال الدين فمن هنا يمكن ان يطعن، وقد تلقى طعنة جارحة في حياته واحتملها على مضض مفوضاً امره إلى خالقه وموقناً ان مثل هذا البلاء ضريبة مفروضة على كل من يتحدى العرف العام[1].

[1] رسالة الغفران، تأليف ابو العلاء المعري، دراسة نقدية دكتورة عائشة عبد الرحمن، مصدر سابق، ص٤١.

وكانت صلابته في الزهد والتعفف ومظنة ان تحميه من التهمة والريب ولكن العصر الذي هضم الحقوق واهدر الحرمان، اسباغ المنكرات والكبائر وكان له في الموقف رأي آخر، يعد الدهر في زينة الدنيا اثماً والقناعة خطيئة، الصوم عن طيبات الرزق معصية، قد قالها أبو العلاء:

لَعَمري لقدْ عَزّ المُباحَ عليكمُ *** وهَانَ بجهلٍ ما يُصانْ ويحظرُ

وكان ان فرضت قضية "صائم الدهر" من نطاق السلوك لزاهد متعفف إلى جدل كلامي متعنت في حكمة الخالق ونظام الكون ورتب الكائنات ومشكلة الخير والشر، لعلهم افلحوا في اعانته وان لم يفلحوا في حمله على العدول عن مسلكه ورضي ان يلقى الله سبحانه وتعالى وهو لا يطالب بما فعل من اجتناب اللحوم والملذات فاذا وصل إلى هذه المرتبة فقد سعد، على ان ما عاناه من ذلك كله كان اهون عليه مما اضناه من افتراء مفترين اساءوا تأويل اقواله وحرفوها عن مواضعها وتقولوا عليه بما لم يقله، ومن شأن كلمة السوء ان تشيع وان شهدت آثاره بقوة ايمانه وصدقية وجدانه، شهد له الذين عرفوه من قرب بصحة العقيدة وصدق اليقين[1].

اضطرب الناس في امره بين ما يعلمون من صلابته في الزهد ونادر ورعه وتقواه، يسمعون من أماليه واشعاره في التوحيد والعظات والشهادة له بصحة العقيدة وقوة اليقين ورسوخ الايمان، وهو ساهر في دجى الليل البهيم يترقب ان يلوح الغلس والصبح ناء بعيد:

طَالَتْ على سَاهرٍ دُجنته *** والصُبحُ ناءٍ فَمنْ لنَا بغلّس

[1] رسالة الغفران، ابو العلاء المعري، دراسة نقدية دكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط٤، ص٣٤-٣٩.

وصمد للتجربة حتى آخر العمر، تخاذلت اعضاؤه ووهن جسمه وما جزله صفاء ذهنه، لا وهنت عزيمته على المجاهدة حتى اراحه الموت من محنة الحياة، فارق الدنيا في اوائل ربيع الاول من سنة تسعة واربعين واربعمائة.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء انسي الولادة وحشي الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب سخياً وفياً، قامعاً لشهواته سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم قوي الذاكرة سريع الحفظ وقد رووا عنه في ذلك الاعاجيب فزعموا انه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة، لم يمنعه ذهاب بصره من اجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في العابهم، فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من ابوب الهزل والجد، وقد اختلف الناس في عقيدته فمنهم من قال انه ملحد يرى رأي البراهمة، وغيرهم يقول ان شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر، وبعضهم يقول ان هذه الاشعار الضالة مدسوسة عليه من اعدائه، واكثر الناس يرجح انه كان شاكاً فتارة يثبت واخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين شعر الشباب ويجمعه "سقط الزند"، وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات، اما شعره في الشيبة فكثير المبالغة واضح التقليد بين التكلف قلد فيه المتنبي واستمد منه اكثر معانيه، استخفف بقواعد اللُّغة وجارى شعراء عصره في البديع بيد انه استعمل الغريب وكثر في شعره من اصطلاحات العلوم قال في اكثر اعراض الشعر الا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سلم له في هذا الطور حمله من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر، واما شعره في الكهولة فقيل المبالغة والتكلف وقد عارض فيه المتقدمين من العرب فائز اللفظ الجذل

والاسلوب البدوي وركب القوافي الصعبة والتزم ما لا يلزم وتشدد في اتباع القياس اكثر واكثر من البديع الجناس واودع شعره في هذا الطور فلسفته وآرائه[1].

ولكنه حشاه بالألفاظ العربية والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد اليها بنان ولا يتذوقها لسان، وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان لمجاورة الديك والحمامة ومناظرة الذئب والشاة وهو احكم بالناس بعد ابي الطيب وبخواص دونه بالخيال الرقيق وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع واخلاف البشر وانظمة الحكومات والقوانين والاديان وهو احد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء كشعره يختلف في كهولته عنه في شبيبته قد كان كثير المبالغة مفهماً بالقريب متكلف السجع كثير الاصطلاحات العلمّية، تم حكم فلسفته في نثر فقلت المبالغة؟ فاضت الجمل بالمعاني لم تخل كتابته من غموض يغني القارئ وتعويل يمله، فربما كتب الرسالة إلى اصدقائه فيمعّن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد[2].

واكثر مؤلفاته ذهبت بها الحروب الصليبية فلم يبق الاّ سقّط الزندْ، اللزوميات، الدرعيات، الفصول والغابات، ديوان رسائل، رسالة الملائكة، رسالة الغفران وهي شديدة الشبه بالملهاء الإلهّية لدانتي والفردوس المفقود لملتن.

□

[1] تاريخ الادب العربي، احمد حسن الزيات، ط٢٦، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص٣٦٠.
[2] تاريخ الادب العربي، تأليف احمد حسن الزيات، مصدر سابق، ص٢٠٠-٢٥١.

المبحث الثالث: العرض العام لديوان سقط الزند:

قبل البدء في العرض العام للديوان فلابد من التوقف على ضوء معرفة اسلوبية نثر أبي العلاء المعري الذي برع به قوة في الفكرة والمبالغة في الايجاز وبراعة في صنع الحكمة، ولا سيما في تشبيه وتعريف الشعر والشعراء وما يجب ان يكون منهم حتى يخلد هذا الشعر بفنه وقيمته السامية، وبرز هذا في نثره وخطابه في مقدمة الديوان حيث يقول[1]:

سقط الزند من اعرف كتب أبي العلاء واكثرها تداولاً بين المتأدبين والباحثين، وقد تولى تفسير والقيام عليه في سالف الدهر ائمة فاضلون بذلوا جهدهم في بيان معانيه واكتناف اسراره ومراميه، وكان قد لقب هذا الديوان بسقط الزند لان السقط اول ما يخرج من النار من الزند واول شجرة وما سمح به خاطره فتشبه به وما املاه فيه سماه ضوء السقط، غير انه وقع فيه تقصير من جهة المستملي وذلك انه استملى معنى بعض ابيات منه واهمل اكثر المشكلات وذا استماع لم يتقص به البحث عن ايضاحه فجاء التفسير كانه لمح شيء ولم يشف الغليل ولا يفرق من البرض الا القليل[2].

وشعره كثير في كل فن وميل الناس على طبقاتهم من شاعر مغلف وكاتب بليغ إلى هذا الفن اكثر ورغبتهم فيه اصدق وهو اشبه بشعر اهل زمانه مما سواه لانه سلك فيه طريقة حبيب بن اوس الطائي وابي الطيب المتنبي وهما في جزالة اللفظ وحسن المعنى، واظهر المعجم في درعياته غير انه لم يتفق ان تعرض بنفسه لشيء منها، ورأيت جماعة من وجوه الكتاب والرؤساء اهل الادب وعيوب الناس يرعبون في شرح ما اهمل من ابياته وايضاح مشكلاته وذكرت كعانيه غير سالك طريقة اخرى.

---

[1] شرح سقط الزند، محمد بن سليمان المصري، تحقيق: د. طه حسين، ط٣، ١٩٤٥م، ص٨٧.
[2] مصدر نفسه، ص٨٩.

المقدمة التي قدمها امام سقط الزند:

قال أبو العلاء: قد علم الله جلت عظمته ان احب الكلام إلى ما ذكر به الله عز سلطانه واثنى به عليه، واذا تكلمت بكلمة لغيره عددتها من غين وغبن، تزيد الغصن الشائك من الابن، وانا شيخ مكذوب عليه يظن بعض العامة انني من اهل العلم وانا من الجهالة نطير الحلم، ويخالني ديّناً ولم يزل تقصيري مبيناً ويحسبني نفر ذا يسار وان قضيت الزمن بالإعسار، اقل ما يلحقني من ذلك ان يلتمس مني الاضعف فعال الغني اذا ظهرت المعجزة وصفني بلئيم دنيء واذا نطقت بألفاظ ليست لله فإنما انا كما قيل في المثل "مكره اخوك لا بطل" هذا او ان التشبيه فكيف اذا اخلفني العصر اخلاق السبية "ورب كلمة تقول دعني" و"السيل يضطرك إلى المعطشة"، ولزمت مسكني منذ سنة اربعمائة معلماً اني لا ارسل فيما يتصل بكلام العرب ببنت شفة وبليت بنوى ليست بالمنكسفة ومد العمر فكأنما سنوه السمر ويعدم عنده الثمر وانما يجود بودية ليس بطائل لا يسمح بقوت العائل[1].

وطوقني رجل بعد رجل كلهم يلتمس معنى ادبا او يحب انى ممانع فكان من وارد علي ابو عبد الله الاصفهاني غره احاديث بعض العامة فلقي من الاسفار كلفاً فاصابني قد راهقت تلفا، وعرفته ان غيري اولى بالقصد المجرب بفتح من الناقة بالقصد كما قال القائل[2]:

وقد يترك العُذر الفتى وطعامُه *** إذا هو امسى جُلّه في دمِ القصد

واجتهدت في النصية فليح المثل السائر لج صاحبك فحج، وابو عبد الله لم يحجج ام رحم لكنه اتصل بدماغ محجوج كما قال ابو ذؤيب:

وصُبّ عليها المسِكُ حتىَ كأنّها *** اسيٌّ على أمّ الدماغ حجيجُ

[1] شروح سقط الزند، عبد السلام هارون وآخرون، مصدر سابق، ص٥.
[2] شرح سقط الزند، مصدر نفسه، ص٨.

ولم يمكني الزمن ان اعيته على السفر فلما رضي بكد المقفر استخرت الله عظم سلطانه في اقراء اشياء كثيرة، وسألني ان اشرح له ما يستعجم عليه من الكتاب المعروف بسقط الزند فأجبته إلى ما سأل وقد شهد الله – وكفى به اتى حسير صليح اسقف من الاخطاء واليح[1].

ذكر ما في المقدمة من غريب:

الغبن في الشراء والبيع، يقال غبنته، اعينه غبنا، والغبن في الرأي والغصن الشائك الكثير الشوك، والابن جمع ابنة ومعنى قوله من الجهالة نظير الحلم اي الناس يظنون اني من اهل العلم حين كأني خادعت الجهل.

وقولهم في المثل مكره اخوك لا بطل اصله ان نعامة واسمه بيهس لما قتل اخوته قال لخاله ابي حنش: اخرج بنا إلى موضع كذا وكذا فاني رأيت ظباءً وكتمه ما يريده وهو يريد الموضع الذي قتله اخوته في غار فيه، ثم مضى إلى الذين يدخل فهجم عليهم فجأة ثم قال: ايهما ابا حنش؟ فلما رأى ابا حنش انه وقع في بلية جعل يزيد عن نفسه ويقاتلهم فقال الناس: مكره اخوه لا بطل.

السبيه: مثل السب وهو الخمار وقيل العمامة ومنه قول الشاعر:

فهُم اهلاتِ حول قيس بنْ عاصم *** يحجُونْ سُبّ الزبرقان المزعفرا

يعمي عمامة وكانت سادات العرب تصغر عمائمها، السب ايضا الذي يسابك، قال الشاعر:

لا تسبني فلستُ بسبي *** إنّ سَبّي مَنْ الرجال كريمُ

السب ايضا الحبل يلفه هذيل، قال ابو ذؤيب يصف مشتار العسل وقد تدنى على صخرى بحبل قد شده على وتد ليأخذ العسل:

[1] شروح سقط الزند، مصدر نفسه، ص١٥-٣٧.

تدلّى عليها بينَ سبَّ وخيطةٍ *** بجرداء مثل الوكف يكبو غُرابها

الخبطة: الوتد، والسب: الحبل، والوكف: النطع شبه الصخرة به لملاستها[1].

خطبة سقط الزند:

اما بعد فإن الشعراء كأفراس تتابعن في مدى ما قصر منها لحق، وما وقف ذيم وسبق وقد كنت في ربان الحداثة وجن النشاط مائلاً في صغو القريض أعتده بعض مآثر الأديب، ومن اشرف مراتب البليغ ثم رفضته رفض السقّب غرسه والرأل تريكته رغبة عن أدبٍ معظم جيده كذب ورديئه ينقص ويجدب.

وليس الري عن التشاف ويعلمك بجني الشجرة الواحدة من ثمرها ويدلك على خزامى الارض النفحة من رائحتها، ولم اطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طالباً للثواب، وانما كان ذلك على معنى الرياضة والامتحان السوس.

فالحمد لله الذي ستر بغفةٍ من قوام العيش ورزق شعبة من القناعة اوفت به على جزيل الوفر، وما وجد لي من غلو علق في الظاهر بآدمي، وكان مما يحتمله صفات الله، عز سلطانه، فهو مصروف اليه، وما صلح لمخلوق سلف من قبل، او غير، أو لم يخلق بعد، فانه ملحق به، وما كان محضاً من المين لا جهة له، فاستقيل الله العثرة فيه، والشعر للخلد مثل الصورة لليد يمثل الصانع ما لا حقيقة له، ويقول الخاطر ما لو طولب به لأنكره. ومطلق في حكم النظم دعوى الجبان انه شجيع، وليس العزهاة ثياب الزير، وتحلي الواجز بحلية الشهم الزميع، والجيد من قيل الرجل، وان قلّ يغلب على رديئه وان كثر ما لم يكن الشعر له صناعة ولفكره مروناً وعادة، وفي هذه الكلمات جمل يدللن على الغرض، والله استغفر واياه اسأل التوفيق[2].

---

[1] شروح سقط الزند، مصدر سابق، ص١٠.

[2] سقط الزند، ابو العلاء المعري، مصدر سابق، ص٥.

تحليل الاسلوب اللغوي:

١. **الحقول اللغوية**:

يتمحور النص في هذه الخطبة في قوة ومكانة ألفاظ أبي العلاء في تصويره لأفكاره، وظهرت هذه الكلمات بانتقائه الألفاظ التي كامن بها تصويره الفني لما يريد، وقد جاء في هذه الحقول اللغوية[١].

المدى: الغاية، وربان الحداثة: اول الشباب قال الشاعر:

وانما العيشُ بريَانهِ *** وانتَ مِنْ أفنانه مفتقرِ

وكذلك عنفوانه وغسيانه وجن النشاط: هيجانه، ومنه يقال جن النبات، اذا هاج قال الشاعر:

بِهاجلٍ مِنْ قَسَا وذفر الخُزامَى *** تَداعَى الحُدبياء به الحَنينَا
تفقأ فُوقُه القَلعْ الشُوارى *** وجُنْ الخازباز به جُنونا

هجل: مطمئن من الارض، وقسا: موضع، وذفر: طيب الرائحة والذفر من الاضداد، الطيب والنتن والرفد بالدال وسكون الفاء[٢].

النتن لا غير ومنه قيل للأمة: يا دفار، وقيل الدنيا ام دفر، هذا الذي ذكره العلماء وذكر أبو العلاء كتابه (المرسوم) باستغفر واسغفري انه لو قيل للدنيا ام دفر للدفع هي تدفر اهلها اي تدفعهم لكان وجهاً حسنا، والحدبياء: الشمال، والقلع السحاب العظام والخازباز: هاهنا نبت، وقيل بل هو كطاية غناء الذباب، اما قوله:

رعِيتُها أكرمَ عُودَ عُودَا *** الضّل والصّفصل والبعضيدا
والخازباز الشيم المجودا *** بحيث يدعو عامر مسعودا

[١] شروح سقط الزند، مصدر سابق، ص١١.
[٢] مصدر نفسه، ص١٢.

فالخازباز نبت وكذلك الصل والصفصل، اليعصيد والشيم: البارد، ويروى "الشيم" وهو العالي، المجود الذي اصابه الجود من المطر وقوله: "بحيث يدعو عامر مسعودا"، عامر ومسعود راعيان يقول: كثر النبات في هذا الموضع فغذا غاب احد الراعيين عن صاحبه لا يعرف موضعه الا ان يناديه فإذا سمع صوته عرف مكانه، والخازباز ايضا داء يأخذ الابل في حلوقها.

والسقب ولد الناقة في اول ما تضعه امه اذا كان ذكراً فاذا كان انثى فهو حائل، الخوار يجمعهما جميعاً، والفرس الجلدة الرقيقة التي تخرج على الولد اذا خرج من بطن امه، قال الراجد هو منطور بن مرتد الاسدي يصف ابلاً يجهضن اولادهن في الطريق:

يتركّنْ في كَلَ مَنَاخٍ آبسٍ *** كُلِ جنين مُشعرٍ في الغِرسِ

مناخ آبس: شديد الحر "كل مناخ انس" بالإضافة إلى في كل مناخ ناس، الرال: فرخ النعامة، والتريكة البيضة التي تتفقأ عنه فيخرج منها وتركه في معنى متروكة، وهي التركة ايضا وبيضة الحديد سميت تريكة وتركة، هذا الذي ذكره ابن دير ووجد فيما املاه أبو العلاء ان التركة موضع بيضها اذا خرجن الفراخ من البيض.

ويجدب: يجيب، ومنه يقال عن عمر رضي الله عنه انه جدب السمر، اي اعابه، والتشاف: واصله التشافف اي ليس الري ان نشتف جميع ما في الاناء، وجني الشجرة: ما يظهر من ثمرها، الخزامى: نبت له رائحة طيبة، السوس: الطبيعة، وكذلك التوس، والغفة والبلعة من العيش واحد، والعرب تسمي الفأرة غفة السنور لأن السنور يتلغ بها.

والمين: الكذب، الخلد: القلب، التشجيع: ضد الجبان، ويقال رجل عزهاه وعزهاءة وعزه عره وعنزهو وعنزهوة، ويقال مزهي على فعلي، وعزهاء ممدود وعزهي

معصور، وعزهاه بالهاء الأصلية، وعزهاني إذا كان لا يحب ذكر النساء ويقال في ضده رجل زير النساء وطلب نساء وخلب نساء وخذن نساء وخلم نساء وتبع نساء، والخدن والخدين: الصديق، كذلك الشهم: الحديد الفؤاد، الزميح: المقدم على الامور والاسم الزماع.

وأئمة التبريزي تلميذ أبي العلاء المتوفى سنة ٥٠٢ وشرحه هذا يعد اقدم الشروح بعد شرح أبي العلاء، وقد قرأ التبريزي على استاذه سقط الزند وفي ذلك يقول: "كان يغير الكلمة اذا قرأت عليه شعره في صباه الملقب بسقط الزند، ويقول معتذراً من تأبيه وامتناعه مدحت فيه نفسي فانا اكره سماعه، وكان يحثني على الاشتغال بغيره من كتبه كلزوم ما لا يلزم، وجامع الاوزان، والسجع السلطاني وغير ذلك.

ثم اتفق بعد مفارقتي اياه ان بعض اهل الادب سأله ان يشرح له ما يشكل عليه من سقط الزند فأملى عليه إلى الدرعيات، فضوء السقط انما صنعه أبو العلاء بعد مفارقة التبريزي له، التبريزي لم يصنع تفسير في حياة أبي العلاء وانما صنعه بعده، ويؤيد ذلك قوله في مقدمته: (واردت ما ذكر شيخنا أبو العلاء رحمه الله من ضوء السقط في مواضعه"[١].

وايضا شرح ابن السيد البطليموسي المتوفى سنة واحد وعشرون وخمسمائة وليس هذا الشرح خاصاً بسقط الزند، بل ضم مؤلفه اليه طائفة اخرى من شعر أبي العلاء بعضها من لزوم ما لا يلزم، وبعضها الآخر من سائر دواوين أبي العلاء كما يصرح بذلك في كثير من مواضع السرح، وقد انفرد البطليموسي من بين الشراح بترتيب سقط الزند على حروف المعجم في ذلك يقول: ورأيت ان ترتيب على نظم الحروف المعجمة اتم في الوضع، واجمل للتصنيف فاتيحت لذلك ان ازيد فيه ما يفي بالغرض.

[١] شرح سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون وآخرون، ج١، د. ط، د. ت، ص٦٤.

ولكنه مع هذه الزيارات التي ضمها قد فاته بعض قصائد من سقط الزند ويعد هذا الشرح اقوى الشروح واوفاها واكثرها استيعاباً، ويقول فيه ابن خلدون: (هو اجود من شرح أبي العلاء وشرح البطليموسي نادر الوجود، واول نسخة حفظتها دار الكتب المصرية منه هي نسخة المغفور له العلامة احمد تيمور، هي نسخة سقيمة لم نستطع ان نتعمد عليها في التحقيق الا نادراً وقد استطاعت اللجنة ان تحصل على صور من النسخ ثلاثة مجتلبة من تونس تكرم مشكوراً بتقديمها إلى اللجنة سعادة الاستاذ حسن حسني باشا وزير القلم في الدولة التونسية[1].

وعلى هذه النسخ كان اعتمادهم على نشر نص البطليموسي وهذا الشرح يمتاز بكثرة التعرض للتحقيقات اللغوية والمسائل النحوية، وهو شديد الولوج بالموازنة والمقابلة بين معاني ابي الطيب المتنبي وأبي العلاء وليس بدعا منه ان يسرف في ذلك فان البطليموسي قد تصدى لشرح ديوان المتنبي فكان لذلك اثره في استيعابه لشعره ومعانيه وهو ايضا يلتزم التسجيع في اكثر عباراته فلا ينزل إلى التكلف انما يصطنع ذلك في سهولة ويسر.

شرح ابي رشاد الاخسيكتي المتوفى سنة ثمانية وعشرين وخمسمائة وقد سماه الزوائد واشار إلى هذا الشرح إلى شرح الياقوت في معجم الادباء الحاج خليفة في كشف الظنون وقد صاح ذلك فيما فقد من الشروح.

شرح التنوير وهو لأبي يعقوب يوسف بن طاهر الخومي من علماء القرن السادس الهجري وقد فرغ من تأليفه في المحرم من سنة واحد واربعين وخمسمائة وذكر في مقدمته انه اطلع على ما نقله التبريزي من ضوء السقط فوجد غير واف بالمقصود ولا دال على الغرض المطلوب، والناظر في هذا الشرح يلقى ان ابا يعقوب قد تناول شرح التبريزي نفسه لسقط الزند بالتهذيب والتنقيح وسار معه في كثير من

[1] شرح سقط الزند، مصدر سابق، ص٦٥.

المواضع على نهج واحد حتى انه لينقل كثير من عباراته كما هي لهذا التقارب والتشابه ولأنه طبع قبل اليوم عدة طبعات ضربت اللجنة ضعفاً على النشر.

وقد طبع الشرح لأول مرة مدينة تبريز سنة ستة وسبعين مائتين والف، وعلى حواشيه شرح الخوارزمي المسمى "ضرم السقط" وهذه الطبعة ينقصها القسم الاول من مقدمة المؤلف كذلك شرحه لخطبة سقط الزند ثم طبع بعد ذلك في مطبعة بولاق.

شرح الامام فخر الدين محمد عمر الرازي صاحب التفسير المتوفى سنة ٦٠٦م وقد اشار إلى هذا الشرح صاحب كشف الظنون ليس لهذا الشرح وجود في مكتبات العالم العامة كما يتضح من مراجعة فهارس "بروكلمان".

وايضا شرح صدر الافاضل الحسين بن محمد الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٧م ذكر في مقدمته انه قرأ الديوان على بن المطرزي وهذا قراه ابيه وابوه قرأه على ابي المكارم الابهري الذي رواه عن أبي العلاء، وقد سمي شرحه "ضرام السقط" ولم يذكر هذه التسمية الياقوت ولا السيوطي فيما نقله في البغية عن ارشاد الاديب ولكن صاحب كشف الظنون قد ذكرها وهي الثابتة على نسخ الشرح المطبوعة والمخطوطة وقد فرغ الخوارزمي من تسويده في سنة ٥٨٧م كما نص على ذلك في مقدمته.

وهذا الشرح يمتاز بعمق غوصه على اسرار معاني أبي العلاء حتى انه ليغرق في ذلك اغراقاً، كما انه يمتاز بالتعرض للإشارات التاريخية والاسراف في سردها وعرض كذلك "لقليل من فقه الشافعي واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وفوائد التفسير"، وقد اولع بالموازنة بين شعر أبي العلاء وشعر جمال العرب الابيودي المتوفى بعد أبي العلاء سنة ٥٥٧م وقد وفق في ذلك ايما توفيق كما انه يكثر من الالتفات إلى بيان البديع في شعر أبي العلاء.

من التجنيس والمقابلة والابهام وهو يلح في بيان هذا الاخير الحاحاً عجيبا ويعتمد كثيراً في بيان المعاني والمجازات اللغوية على اساس البلاغة للزمخشري، ويسوف كثيراً من عباراته على حال من السجع والازدواج حتى انه يجتنب ذلك اجتلاباً. وشرح القاضي شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم البارذي المتوفى سنة ٧٣٨م وقد سمى كتابه "العمدة في شرح سقط الزند" كما ذكره صاحب كشف الظنون وهذا الشرح لم نعرف عنه شيئاً اكثر من اسمه.

هذه نبذة تاريخية لبيان شروح سقط الزند وليس هي كل الشروح التي تصدت لسقط الزند ولكنها مبلغ ما وصل علمنا اليه وامكننا استخلاصه من التاريخ.

نسخ شروح سقط الزند:

فكرت اللجنة كلياً في الشرح الذي تبدأ به من شرح سقط الزند فاتجه فكرها بادئ الرأي إلى "ضوء السقط" لأبي العلاء، ولكنها لم توفق للحصول عليه، ومن ثم ارتضت نشر شرح التبريزي مستقلاً، ولكنها بعد دراسته وجدت ان من الخير ان تضم اليه شرحين آخرين عظيمين هما شرح البطليموسي والخوارزمي، وذلك ليجد القارئ والباحث في اجتماع هؤلاء الشراح الثلاثة ما يشفي علته في فهم شعر أبي العلاء ويعينه على النظر اليه من مختلف الزوايا بما يجلي معانيه اصدق تجلية ويوضح مراميه اتم توضيح.

وكان من التوفيق ان كلاً من هؤلاء الشراح الثلاثة سلك منحنى غير الذي سلك من قبله، واستدرك على ما فاته بحيث لا يستغني القارئ بأحدها عن الآخرين، بل لا يجد بداً من ان ينظر في مختلف الشروح ليحصل على كمال النفع وتمام الفائدة، وقد اتصلت اللجنة في سبيل ذلك بكثير من مكتبات اوروبا وتركيا للحصول على مخطوطات اخرى غير التي ظفرت بها ولكنها اجيبت بأن تلك المخطوطات لا تزال

في مخابئها والتي اقتضت حال الحرب ان تؤويها اليها، ولكن ذلك لم يثن من عزيمتها في معالجة ما حصلت عليه من المخطوطات ويحقق ما فيها من التحريف وسد ما بها من النقص، وستحاول اللجنة بعد ما اذن الله به من انفراج تلك الحرب العاتية وقد حصلنا إلى الآن على ثلاثة مجموعات من تلك الشروح وعلى نسخة جيدة من متن الديوان.

العرض عام بسقط الزند من حين اغراضه الشعرية وخصائص قصائده وما يحيط بها من ادوات بنائية، تفرد بها أبو العلاء المعري سواء كان في تناوله الموضوع الذي عبر به عن شاعريته مثل الحكمة جعلها غرضاً من اغراضه بحيث يتناول قصيدة كاملة تقوم على الحكمة وطبيعتها وقيمتها الروحية والانسانية التي عرض بها عمق ما تكنه النفس وما يحيط به من الآلام وصدمات ابرز صرخاتها من خلال هذا الشعر الحكمة وكما برع في اغراض اخرى مثل الرثاء الذي خلط له الفلسفة والتي تتمثل في طبيعة الحياة والموت وما بعدها فنجد رثاء أبا العلاء المعري يحمل في طيات ابياته بأن الشعر العربي يقوم في دلالة معانيه على القيم الروحية والانسانية التي تستلذ النفس عند سماعها او يطيب التعبير بها مما يجعل أبي العلاء المعري ان يكون شاعراً بالقيم الروحية والانسانية موضوعات الرثاء في شعره[١].

ومن قصائده في الرثاء تناولها في دقة التصوير الفني والشعري المنظم الذي خلط به الفلسفة والتي تمثل في طبيعة الحياة والموت وما بعدهما يقول[٢]:

انت مَنْ اسرةٍ مَضْوا غَيَر مغرو *** رينَ مَنْ عيشةٍ بذاتِ ضَمَاد

والمثال السابق قامت عليه كثير من المعاني والالفاظ في اغلب قصائد أبي العلاء المعري في ديوانه سقط الزند، سواء كان في اعراض الغزل او الفخر او

[١] القيم الروحية في الشعر العربي القديمة والحديثة، د: ثريا عبد الفتاح ملحس، ط٤، دار النشر، بيروت، د. ت، ص٢٠١٧.
[٢] ديوان سقط الزند، تأليف ابو العلاء المعري، ص١١-١١٥

الوصف او المدح او الحماسة او الزهد، وكل هذه جاءت قوية المعاني دقيقة التصوير محكمة الاسلوب كأن الذي نظمها شعراً مبصراً امام عينيه الكون لوحة تحمل الطبيعة الحية والصامتة في نبط كلماته التي برعت بها شاعريته في ديوانه "سقط الزند" والتي اثبتها وبين فيها اتجاهها الفني واسلوبه الرائع وتصويره البديع بأن الشعر فن وليس حياة وعنده قيمة وليس استجراء للملوك وغيرهم من الامراء بل عنده الشعر على نضج قول النبي صلى الله عليه وسلم "انما الشعر حكمة".

الفصل الثاني

تعريف المبالغة وآراء العلماء حولها

المبحث الأول: تعريف المبالغة

المبحث الثاني: أنواع المبالغة

المبحث الثالث: آراء العلماء حول المبالغة

المبحث الأول: تعريف المبالغة:

يرى الباحث أن الأدب في حقيقته هو سمة القيم الإنسانية والروحية التي ترسل الطمأنينة في المجتمع وهذا يعتمد إن كان شاعراً على قوة خيال الشاعر ومتانة الفكرة التي في إمكانه يحقق تلك السمة الانسانية والروحية لا سيما بالشعر وان تكون لها صدى مؤثر لدى السامعين، ولكي يحقق الأدب ذاته، فميراثه منظوم مكتوب مثل ما تركه أبو العلاء المعري مثل هذا الأدب في ديوانه سقط الزند ولكن برزت شاعريته وشعره وخطابه الابداعي بما يحمله في مخيلته من غريب اللُّغة العربية وشواردها، ومن فلسفة الكون الذي يحيط به وكأنه أضاف شيئاً في شعره هذا إلى مبادئه، وكان شعر قوي الفكرة دقيق التعبير بارع الخيال سديد الخطاب لا سيما ما جاء في اركان شعره تصويراً بالمبالغة بأنواعها وأجناسها وأنماطها كأن شعره في هذا الديوان او بعضه يصبح ديواناً للعلماء الذين تحدثوا عن المبالغة على ضوء المصطلح البلاغي النقدي، وعلى الرغم من انهم اخذوا شواهد كثيرة غير شعر أبي العلاء إلا أن شعره لا يقل عن تلك الشواهد لذا فالنص مصطلح نقدي للعلماء وآرائهم وحديثهم عن المبالغة، اما الشواهد جاءت بدلاً عن شواهدهم من ديوان سقط الزند وكان شعره داعماً للمصطلح النقدي للمبالغة وأنماطها في اللُّغة والاصطلاح.

المبالغة هي إن بلغ المعنى أقصى غايته وأبعد نهايته ولا تقتصر في العبارة عنه أدنى منزلة وأقرب مراتبه ومثال له في القرآن الكريم قوله تعالى: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)[1]، هنا خص المرضعة للمبالغة لأن المرضعة اشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها،

[1] سورة الحج، الآية ١٢.

وأشفق به لقربه منها ولزومها له لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً على حسب القرب تكون المحبة والإلفة[1].

قال أبو العلاء:

وهجرنا شُربْ الكُؤوسِ احتقاراً *** وشَربْنَا مَسرّةٍ بالدّنانِ

دان جمع دَنّ وانما اراد المبالغة في الشرب وأشد المبالغة، وقال امرئ القيس:

فمثلُكَ حُبلى قَدْ طرقتُ ومُرضعٍ *** فاليهتُها عَنْ ذي تَمائم مُحولِ

لما اراد المبالغة في صف محبة المرأة، إني ألهيتها عن ولدها الذي ترضعه لمعرفته شغفها به وشفقتها عليه في حال ارضاعها اياه، وقوله تعالى: (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً)[2]، لو قال يحسبه الرائي لكان جيداً ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن لأن حاجته إلى الماء اشد وهو على الماء احرص، وقد ذكر مثل قول دريد بن الصمة:

متى مَا تَدعُ قَومِكَ أدعُ قومي *** وحَولي مِنْ بني جَشمْ فئامْ

فوارس بِهمةِ حشدٍ إذا ما *** بَدا خَضر الحيية والحزامْ

فالمبالغة الشديدة في قوله الحيية ومن المبالغة نوع آخر وهو ان يذكر المتكلم حالاً لو وقف عليها اجزأته في غرضه منها فيجاز ذلك حتى يزيد في زيادة التوكيد يلحق به لاحقة تؤيده.

يقول عميرة بن الايهم التغلبي[3]:

نكرَمُ جَارنَا ما دَامَ فينا *** وتتبعُه الكرامة حيثُ مَالاَ

---

[1] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، ط١، بيروت، دار المعارف، ص٤٠٦-٤٠٨.
[2] سورة النور، الآية ٣٩.
[3] شروح سقط الزند، مصدر سابق، ص١٢٢.

فإكرامهم الجار ما دام فيهم مكرمة واتباعهم اياه الكرمة حيث حال من المبالغة.

وقول الحكم الحضري:

أقبعُ من فَردٍ وأبخلُ بالقردِ *** من الكلبِ امسَى وهو غَرثانُ اعجبُ

فالكلب بخيل على ما ظفر به وهو أشد بخلاً اذا كان جائعاً اعجف ومن هنا قول رواس بن تميم[1]:

وانا لنُعطي النصّفَ منا وإننا *** لنأخذه من كُلِ ابلخٍ ظالمٍ

المبالغة في قوله ابلخ، وقول اوس المجيمي:

وهُم تركوكَ اسلحَ من حُبارىَ *** رأتْ صَقراً وأشردُ من نعامٍ

فقوله رأت صفراً من المبالغة وكتب بعض اهل الادب فربك احب إلى الحياة في ظل اليسر والسعة ومن طول البقاء في كنف الخوض والدعة ومن اقبال الحبيب مع إدبار الرقيب، ومن شمول الخصب وبعد عموم الجدن واقرب لعيني من الظفر بالبقية بعد اشراقي على الخيبة، وأسر لنفسي من الامن بعد الخوف والإنصاف بعد الحيف، واسأل الله ان يطيل بقائك وإقبال ويريهم نعمائك ويرزقني عدلك ووفائك يكفيني نبوءك وحفاءك، فقولي اقبال الحبيب مع ادبار الرقيب، وقولي الخصب والدعة، وقولي الخصب بعد عموم الجدب وما بعد إلى آخر فصول من مبالغات ومن عيوب هذا الباب قول بعض المتأخرين:

فلا غَيضتُ بِحارِكَ يا جَمُوماً *** على علّلِ الغرائبُ الدّخالِ

اراد أن يقول انك كثير الجود على كثرة سؤالك فلا نقصت فغير عنه هذه العبارة[2].

---

[1] تحدير التحبير في صناعة الشعر والنثر في تبيين ايجاز القرآن، ابي الاصبع، ط١، ص١٤٣-١٤٤.
[2] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مصدر سابق، ص٨٤-٤٠٤.

وقول بن تميم:

ليسَ قولِي في شّمسُ فَعلكَ *** كالشّمسِ ولَكِنْ في الشّمسِ كالإشراقَ

على ان حقيقة "المعنى" هذا البيت لا يوقف عليها، ومن ردئ المبالغة قول ابي تمام:

ما زالَ يهذي بالمكارمِ والعُلى *** حتى ظنَنا أنه محُموم

اراد ان يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بذكر الجود فقال ما زال يهذي فيحاء بلفظ مذموم، الجد في معناه قول آخر:

ما كَانَ يَعطي مثلُها في مثله *** لا كَرِيمِ الخّيمْ او مجنُون

هنا يوجد قسمين ممدوحاً ومذموم بخرج الممدوح من المذموم إلى الممدوح المحمود، ومن جيد المبالغة قول عمرو بن حاتم:

خليليّ امسىَ الحبُّ فُرقاء قاتلي *** قَضَى الحبُّ مني وقَدهُ وضَرعَ

ولو حاورتنا العام خرقاء لم نَسلْ *** على حَدّينَا الا بصوبِ ربيعَ

وورد تعريف المبالغة في اللغة: هي الاجتهاد في الشيء إلى حد الاستقصاء والوصول به إلى غائبه بمعنى المغالاة وهي الزيادة بالشيء عن حده الذي هو له في الحقيقة، يقال وبالغ في الامر مبالغة وبلاغاً اذا اجتهد فيه واستقصى اذا غإلى فيه ايضا[1].

المبالغة في الاصطلاح: هنا ان يدعي المتكلم لوصف ما انه بلغ في الشدة او الضعف حداً مستبعداً او مستحيلاً.

[1] علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، ص٣١٣-٣١٤.

مادة بلغ، بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً، أي وصل وانتهى، ابلغه هو بلاغاً وبلغه تبليغاً[1].

آراء حول قبولها او عدمه:

يرى بعض المستشرقين رفضها مطلقاً لخروجها عن منهج الحق والصدق، ويرى المتخصصون قبولها مطلقاً في التعبيرات الآتية وبدعوى ان اعرب الشعر اكذبه، اما جمهور العلماء والأدباء فقد توسطوا في الأمر فقبلوا من المبالغة ما كان منها حسناً جميلاً جارياً مجرى الاعتدال الذي لا يراه الناس مستنكراً ولا مستهجناً، او قائماً على التصوير الخيالي في سباق من الكلام يسمح بذلك بشرط ان يكون في المبالغة ايهام بأن المتكلم يقرر حقيقة واقعة بكل عناصرها بل يدرك المتلقي ان الكلام مسبوق على سبيل المبالغة فيأخذ منها المعنى المعتاد في الكثرة مع زيادة مقبولة قيل هي ادعاء بلوغ وصف في الشدة او في الضعف حداً مستحيلاً او انما يدعي ذلك خوفاً من ان ذلك الوصف غير منتاه في الشدة او الضعف بل هو متوسط او دون المتوسط، وقيل الرفض مطلقاً وحجتهم ان خير الكلام خرج الحق وجاء على منهاج الصدق من غير افراط ولا تفريط[2]، كما قال حسان:

وانما الشِعرُ لُبِ المرءِ يعرضهُ *** على المَجالسِ إنْ كَيِسّا وان حُمْقا
فإنَ أشعرَ بيتٍ انت قائلهُ *** بيتُ يُقال إذا أنشدته صدقاً

فالمبالغة وردت في بعض الاحيان بأنها تعني الإفراط في الصفة هو الذي سماه قدامة بالمبالغة، وسماه من بعد التبليغ واكثر الناس على تسمية قدامة لأنها اخف واعرف[3]، يقول أبو العلاء:

تَخُبّ بك الجيادُ، كأن جُوناً *** على لبّاتهنّ الأُرجُوان

[1] معجم لسان العرب، بن منظور، ج٢، طبعة بولاق، ٦٣٠هـ، ١٢٣٢م، مادة بلغ.
[2] البلاغة العربية، اسسها وعلومها، كامل عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ج١، د. ط، د. ت، ص٤٥٠.
[3] البلاغة العربية، اصولها وامتدادها، ط افريقيا، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص٢٩٦.

اراد بالجون: الاسود والاحمر والمراد هنا الاحمر، واراد بالارجوان ما يسيل من الدم من نحور جياده لوقوع الطعن فيها حين اقدامه على الاعداء.

وجد قدامة المبالغة بانها هي ان يذكر المتكل حالاً من الاحوال ولو وقف عندها لأجزأت فلا يقف حتى يزيد في المعنى ما ذكره ما يكون ابلغ في معنى القصيدة، وهاجس المبالغة عام وظاهر في كل ذلك واننا فصلنا لابراز التصوير "الاردافي او التشبيهي" او عن طريق الادعاء المباشر او عن طريق الابهام "الاشاري"، ومن الطف صور المبالغة ما سماه تجاهل العارف فهو يحتوي في غالب احواله تشبيهاً مضمراً[1]، مثل قول الشاعر أبو العلاء[2]:

أيُوعدنا بالروّمِ ناسُ، وإنَّما *** هم النّبْتُ، والبيضُ الرّقاق سَوام

وايضا قوله:

مثلُ العرائسِ ما انَثَنَتْ من غارةٍ *** إلا متحضّبةً السنابِكِ بالدّم

المبالغة بالصيغة:

وذكر العلماء في بدائع القرآن بالصيغة او اللفظ من المبالغة السماعية او القياسية، وصيغ المبالغة هي:

١. فَعّلاَنْ: مثل – رحمن.

٢. فعيل: مثل – رحيم.

٣. فعال: مثل – تواب، غفار، قهار.

وتوجد صيغ اخرى مثل رحمون ورهبوت وما هو سماعي ودار نقاش حول استعمال صيغ المبالغة اوصافاً اسماء الله عز وجل، وزعم بعضهم انها مستعملة بجانب الله تعالى على سبيل المجاز، وإذ هي موضوعة للمبالغة لا مبالغة فيها حيث

[1] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار المعارف، ط١، ١٩٦٦م، ص١١٢.
[2] شروح سقط الزند، مصدر سابق، ص٣١١.

يوصف الله تعالى بها، وقال بعضهم المبالغة فيها بحسب تعدد المفعولات التي تفوق تصورات الخلائق.

اقول هذا النقاش الذي دار حول الصيغ التي سماها علماء العربية اصطلاحاً صيغ المبالغة، مع العلم ان العرب قد استعملوا هذه الصيغ ولم يقولوا انها صيغ مبالغة بمعنى انها تدل دوماً على ما هو زائد على الواقع بحقيقة حتى ترد الاشكالات التي اوردها المتشكلون حول صفات الله عز وجل.

وباستطاعتنا ان نقول ان هذه الصيغ موضوعة في الاصل للدلالة على كمال الصفة وهذا الكمال لا يوجد في الناس او للدلالة على الكثرة والوفرة في اجزاء الصفة دون ان يكون ذلك على سبيل المبالغة بمعنى الزيادة على الحقيقة والواقع دوماً، فإذا اطلقت على غير مستحق الكمال فيها كان هذا الاطلاق على سبيل المبالغة، واذا اطلقت على مستحق او الكثرة فيها فهو اطلاق على وجه الحقيقة ولا مبالغة فيه مما يسمى بصيغ المبالغة اذا اطلقت على الله عز وجل فهي مطلقة بحسب وضعها اللغوي ولا مبالغة فيها وهذا يتحل الاشكال من اساسه وبسبب الاشكال التقيد بتعريفات الاصطلاحية جاءت على ألسنة علماء اللُّغة دون الرجوع لتبصر بأصل الاستعمالات الصرفية وتحديد المراد من الاصطلاح[1].

[1] البلاغة العربية اسسها وعلومها، مصدر سابق، ص٤٥٦-٤٥٧.

المبحث الثاني: **أنواع المبالغة**:

أنواع المبالغة ثلاثة وهي:

أ. التبليغ.

ب. الإغراق.

ج. الغلو.

أولاً: **التبليغ**:

لان المدعي للعصف من الشدة او الضعف اما ان يكون ممكناً في نفسه اولاً، الثاني الغلو والأول اما ان يكون ممكناً في العادة اولاً التبليغ والثاني الإغراق، فالتبليغ ما يكون المدعي فيه ممكناً عقلاً وعادة[1]، لقول أبو العلاء:

وقَدْ اقود الطّرف مستأسداً *** رائد بقْلٍ مُرَّةٍ او بُقيلْ

مستأسداً أي مجرئاً كالأسد واراد بهذا البيت معنى قوله:

قوم اذا نبت الربيع لهُمْ *** نبتت عداوتهم مع البغل

أي اذا اخصوا اشتدوا وقووا وحاربوا اعدائهم كأنها ظهرت عداوتهم مع البقل:

اسيلُ مآق العيس في الكحل *** تنضح زفراها بمثل الكحّيلُ

العيس توصف بأنها اذا تعبت سال مآقها والزفري خلف اذن البعير والكحيل القران وانما اراد عرقها وعرق الابل اذا جف اسود بخلاف عرق الخيل فانه ابيض أي اجشمها السفار حتى يسيل مآقيها وتعرف وذلك مما لا يمتنع عقلاً وعادة ونظير قول المتنبي نحو قوله تعالى: (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)[2].

[1] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد احمد الهاشمي، ط، بيروت، ص٣١٢.
[2] سورة النور، آية ٤٠.

وكقوله في وصف فرس:

إذَا ما سابقتُها الريّحُ فرّتْ *** وألقَتْ في يَدِ الريح التُرابا

ومن أنواع المبالغة الإغراق وهو ما يكون المدعى فيه ممكناً عقلاً لا عادة وهذا على ضربين:

وهو أجلبها إلى حسن الإصغاء ان يقترن به ما يقربه من أمثلة الإغراق قول أبو العلاء المعري[1]:

تزودُ عُلاك شُراد المعاني *** إليّ فمن زهير زياد

ومنه قوله:

وقد تنطِقُ الأشياء وهي صوامتُ *** وما كل نطقٍ المُخْبرينَ كلأ

كَفَى بِخضّاب المشرفّية مُخْيراً *** بأن رؤوساً قَدْ شقّينَ وهّام

وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر او المتكلم يكاد او ما شاكلها نحو كأن ولولا وما اشبه ذلك مما يناسب ابيات أبي العلاء في قوله[2]:

ولو طرب الجماد لكان أولى *** شُرُوبْ الرّاح بالطّرب الدّنان

يقول ان الدنيا جماد لا تحس للفرح ولا السرور ثم ضرب لذلك مثلاً وهو ان من شرب قدراً من الراح طرب والدن ملازم للراح وهو لا يطرب لانه جماد ولو تصور الحياة حس لكان الدن الملازم للراح اولى الاشياء بالطرب.

وايضا قوله:

ولولاَ فرْطُ حُبكَ ما اذهَاني *** إلى المَدحِ الطريق ولا التلادِ

[1] علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، مصدر سابق، ص٣١٣.
[2] سقط الزند، مصدر سابق، ص٦٦، ٨٤، ١٠٩.

والإغراق ايضا هو الرّمي وذلك ان تجذب السهم في الوتر عند النزع حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس، وانما تفعل ذلك لبعد الغرض الذي ترميه وهذه التسمية تدل على ما نحوت اليه واشرت نحوه[1].

ومن قوله في الإغراق:

فَلا قولُ إلاَ الضَربِ والطعنِ عندنا *** ولا رُسل إلا ذابلٍ وحُسامْ
فإنْ عُدتَ فالمجروحَ تؤسي جِراحهُ *** وإنْ لمْ تَعدْ مِتنا ونَحنُ كِرامُ

الغلو: هو ما يكون المدعي فيه غير ممكن لا عادة ولا عقلاً وهذا مسرح الشعراء المغلقين في مدحهم وهجومهم، فالمغبول أنواع: أن يقترن به إلى الامكان كلفظ يكاد في قول أبو العلاء:

يَكادُ مُحَيّن لاقَى المنَايَا *** بِسيفِكَ لا يُكونْ له مَعادْ

المحين الذي قد حان حينه إلى هلاكه وهذا من الغلو والافراط في القول أي يكاد من تقتله بسيفك تنكيلاً له لا ينثر يوم البعث[2]، وان يتضمن نوعاً حسناً من نخبيل الصحة لقوله ايضاً:

غَرّاء سَلهيةٍ كأنْ لِجَامِها *** نَال السماءِ به بَنان المُلْجِم

وايضا قول ابي الطيب المتنبئ:

عَقدتْ سنابكُها عليها عَثيرا *** لو تَبْتغي عُنقَا عليه لأمكنَا

لقد ادعى تراكم الغبار المرتفع من سنابك الخيل فوق رؤوسها بحيث صار ارضا يمكن السير عليها وهذا وان كان غير ممكن يخيل إلى الوجم من كثرته وكونه

[1] العمدة في محاسن الشعر، مصدر سابق، ص٥٩.
[2] علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، مصدر سابق، ص٣١٤.

كالجبال صحته وقد اجتمع السبب الاول والثاني في قول القاضي الجرجاني يصف طول الليل[١]:

يخّيل لي ان سَمَر الشّهبْ في الدجى *** وشُدّت بأهدابي اليهن اجفاني

أي وقع في خيالي ان الشهب محكمة بالمسامير لا تزول عن مكانها، وان اجفان عيني قد شهدت بأهدابها إلى الشهب لطول ذلك الليل وهذا تخيل حسن ويزيده حسناً لفظ يخيل[٢].

أسماؤه وميزته:

من أسمائه أيضاً الإفراق والافراط، ومن الناس من يرى ان فضيلة الشاعر انما هي في معرفته بوجوه الإغراق والغلو، ولا أرى ذلك الا محالاً لمخالفة الحقيقة وخروجه عن الواجب المتعارف، وقد قال الحذاق خير الكلام الحقائق فان لم يكن فما قاربها وناسبها وانشد أبو العلاء[٣]:

قلق السّماك لركضه ولربّما *** نقض الغُبار على جبين المِزَمْ[٤]

وقوله:

يا ابَا ابراهيمَ؛ قصْر عنَكَ الشِّعرَ *** لما وُصُفت بالقرآن
أشْرب العالَمون حُبّك طبعاً *** فَهو فرض في سائر الأديان
بَانَ للمسلمينَ منك اعتْقاد *** ظفُروا منه بالهُدى والبيان
وحُدودُ الإيمانِ يقْبسُها منك *** ويَمْتاحُها أُولُو الإيمان
ومُحيّاكَ للذي يعبد الدّهرَ *** وإهباءُ طرِفك الفتيان
وإلهُ المُجوس سَيُفكَ إنْ لمْ *** يرَغْبَوا عنْ عبادة النّيران

وتعريف الغلو عند قدامة: تجاوز في نعت ما للشيء ان يكون عليه، وليس خارجاً عن طباع كقول النمر بن تولب في وصفه السبق شبه به نفسه[٥].

---

[١] سقط الزند، مصدر سابق، ص٦٦، ٨٤.
[٢] ديوان الجرجاني، تحقيق محمد قاسم مصطفى، ط، بغداد، ١٩٧٩م، ص٢٨٤.
[٣] العمدة في محاسن الشعر، مصدر سابق، ص٦٠-٦١.
[٤] سقط الزند، ص٩٩.
[٥] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مصدر سابق، ص٢٨٤.

تظل تحفر عنه ان ضربت تكاد به *** بعد الذراعين والساقين والهادي

اذ ليس خارجاً عن طباع السيف ان يقطع الشيء العظيم ثم يغوص بعد ذلك في الارض، لأن مخارج الغلو عنده "تكاد" على هذا تأويل اصحاب التفسير قوله تعالى: (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)[1]، أي كادت قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)[2]، بمعنى لتكاد تزول منه.

اختلاف الناس في الافراط:

قال الجرجاني في كتاب الوساطة: والافراط مذهب عام المحدثين وموجود كثير في الاوائل والناس فيه مختلفون من مستحسن قابل ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز بالوصف حدها تسلم، ومتى تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته الحال إلى الاحالة ونما الاطالة نتيجة الافراط وشعبة من الاغراق.

وقال الحاتمي في الاغراق[3]:

وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر ابيات الغلو والاغراق ويختلفون في استحسانها ويعجب بعض منهم بها وذلك على حسب ما يوافق طباعه واختياره، يرى انها من ابداع الشاعر الذي يوجب الفضيلة له فيقولون احسن الشعر اكذبه وان الغلو انما يراد به المبالغة والافراط وقالوا اذا انى الشاعر من الغلو.

ومن اشتقاق الغلو:

من المغالاة ومن غلوة السهم وهي مدى رميته يقال: غالبت فلاناً مغالاة وغلاء اذا اختبرتما ايكما ابعد غلوة سهم، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جرى المذكيان غلاء) وقد جاء في حديث داحس: (غلاء وغلاب بالباء ايضاً، واذا قلت:

---

[1] سورة الاحزاب، آية "٩".
[2] سورة ابراهيم، آية "٤٦".
[3] علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، مصدر سابق، ص٣١٥.

غلا السعر غلاء فانما تريد انه ارتفع وزاد على ما كان، كذلك غلت القدر غلياً او غلياناً[1].

الغلو ايضا ورد تعريفه بانه تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها كقول تأبط شراً:

ويَومٍ كيومِ العلْيتينِ وعَطَفَةٍ *** عَطفَتْ وقدْ مَسَ القُلوبِ الحناجرَ

ومنه قول أبي العلاء:

فلولاكَ بَعدَ اللهِ ما عُرفَ الندىّ *** ولا ثَارَ بيْنَ الخافقِينَ قتام

ولا سُل في نَصرَ المكارِمِ صارمُ *** ولا شُدّ في غَزوِ العدوِ حزام

ومثال الغلو من النثر: قول امرأة من العجم كانت لا تظهر اذا طلعت الشمس فقيل لها في ذلك قالت اخاف ان تكشفني، وقال إعرابي لنا ثمرة قطناء جرداء تضع الثمرة في فيك فتجد حلاوتها في كعبك، قيل الاعرابي محور ان دار حولها الفكر الفلسفي الحديث في بلادنا هما الحرية والعقل، اما الحرية فلا تكون الا فكاكاً من القيود، واما العقل فلا يكون الا التزاماً للقواعد والقيود فكيف يكون الجميع بين فكاك الحرية انطلاقتها قيود العقل وقعوده ذلك هو السؤال الذي يحاول الفكر الفلسفي ونصف القرن الاخير عندنا ان يجيب عنه حتى يجوز لنا ان يوفقوا بين العقل والنقل فمحور نشاطها الفلسفي اليوم هو التوفيق بين العقل والحرية بحيث يجئ الفعل حراً عاقلاً في آن معاً، وكان أبي العلاء رحمه الله في مقدمة الطليعة التي اضاءت سراج الفكرتين معاً اضاءهما كاتباً ناثراً وانبعث ضوؤهما عنده شاعراً[2].

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه، مصدر سابق، ص٥٩.
[2] مع الشعراء، نجيب محمد، ط٢، دار الشروق، بيروت، د.ت، ص٥٣-٥٤.

المبحث الثالث: **آراء العلماء حول المبالغة**:

- الرفض مطلقاً وحجتهم ان خير الكلام مخرج الحق وجاء على منهاج الصدق من غير افراط ولا تفريط، قال حسان بن ثابت:

وانَمَا الشّعرُ لُبّ المرءِ بَعرضهِ *** المجالسُ على أنّ كيساً وإنْ أحمقا
فإنْ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلهُ *** بيتٍ يُقالَ إذا أنشدتُه صِدقاً

- القبول مطلقاً وحجة اولئك ان خير الشعر اكذبه وافضل الكلام ما بولغ فيه.
- التوسط بين الامرين فتقبل مع الحسن اذا جرت على منهج الاعتدال، وهذا رأي جمهرة العلماء ودليل وقوعها في التنزيل على ضروب مختلفة وترد اذا جاءت على الاغراق والغلو ويذم مستعملها كما درج على ذلك ابو انواس وابن هانئ الاندلسي والمتنبئ وأبو العلاء وغيرهم.

وللمبالغة ضروب كثيرة والناس فيها مختلفون منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ويراها الغاية القصوى في الجودة وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان وهو قائل: اشعر الناس من استجيد كذبه، وضحك من ردئه، هكذا اعرفه، ورأيت بخط جماعة منهم – عبد الكريم والباغاني – من استجيد جيده ومطابة وضحك من ردئه، وروى قوم من حديث النابغة ومطالبته بن ثابت بالمبالغة ونسبته اياه إلى التقصير في قول حسان بن ثابت[1]:

لنَا الجفناتِ الغُرّ يلَمَعنْ بالضُحىّ *** وأسَيافُنَا يَقطُرنْ مِنْ نَجدةٍ دما

ما هو مشهود عندهم في كتبهم منهم من يعيبها وينكرها ويراها عيباً وهجنة في الكلام، قال بعض الحذاق بنقد الشعر: المبالغة ربما احالت المعنى ولبّسته على

[1] علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، مصدر سابق، ص٣١٣.

السامع فلبست لذلك من اسن الكلام ولا أفخره لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه، وتقريب المعنى على السامع فان العرب انما فُصّلت بالبيان والفصاحة حلا منطقها في الصدور وقبلته النفوس في الاساليب حسنة، واشارات لطيفة تكسبه بياناً وتصوره في القلوب تصوراً، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون اشعر من القدماء وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها بالتشكك في التشبيهين.

المبالغة نوع معدود من محاسن هذا الفن عند الجمهور استدلوا على ذلك بقول من قال احسن اكذبه، ويقول الذبياني: أشعر الناس من استجيد كذبه، وضحك من رديئه[1].

[1] خزانة الادب وغاية الأرب، الاديب الشيخ تقي الدين ابي بكر علي بن حجة الحموي، شرح عصام شعيتو، ط٢، ١٩٩١م، بيروت، دار الهلال، ص٧-٨.

الفصل الثالث

دراسة تطبيقية فنية في شعر ابي العلاء المعري

المبحث الاول: صور المبالغة في الغزل والفخر

المبحث الثاني: صور المبالغة في الفخر والحماسة

المبحث الثالث: صور المبالغة في الرثاء والحكمة

المبحث الاول: صور المبالغة في الغزل والفخر:

يرى الباحث ان الإغراق ضرب من ضروب المحسنات البلاغية على ضوء ما ورد في التعريفات البلاغية، ولا يتمكن منه إلى الشاعر البارع، فأبو العلاء المعري مولع بالاغراق الذي هو صورة من المبالغة، وهو شاعر بارع ووصاف ودقيق التصوير واسع المعارف العربية ومفرداتها، ودقيق في انتقاء الالفاظ التي تحقق في آن فصاحة كلمته وبلاغته، فليس هذا بحسب انما تكون الكلمة ايضا لها دلالة معنى بشيء احكمه في بيته الشعري غالباً يكثر في الاغراق من خلال رسمه او تصويره لفكرة عن طريق الكناية.

والابيات الآتية على الرغم من انها في التشبب بالنساء كمطلع لقصيدة التي يفخر بها بقبيلتي نمير، مطر يقول[1]:

يَا ساهرَ البْرقَ ايقظْ راقدَ السّمرِ *** لعل بالجزْعِ أعواناً على السّهرِ
وإنْ بخِلْتَ على الاحَياء كلّهمِ، *** فاسْقِ المَواطِر حِياً مِنْ بنّي مَطَر
ويا أسيرة حجْلَيْها! أرى سَفَهاً *** حَمْل الحُليّ لَمْن أعيا عن النّظرِ
ما سِرتُ الا وطيْفُ منكِ يصْحبُني *** سُرّى أمامي، وتأويباً على أثري
لو حَطّ رَحلي فَوْقَ النجْمِ رافِعُه *** وجَدتُ ثَمْ خَيالاً منكِ مُنتظري
يَوَدّ أنْ ظَلَام الليْلِ دامَ له، *** وزيدَ فيهِ سَوَادُ القَلْبِ والبَصَر
لو اختصرْتم من الإحسانِ زُرتْكُم *** والعذْب يُهْجَرُ للإفراطِ في الخَصَرْ

فأبو العلاء المعري في الابيات السابقة نجده قد أتى بجديد في مقدمة القصيدة في العصر العباسي إذ أتى ايضا بمقدمة غزلية تشبب بالمرأة ثم يدعم تصويره

[1] سقط الزند، مصدر سابق، ص٥٦.

بالرموز والكنايات والصور التي هي امثل دلالة شوق وحنين لشاعر لمن يحب، مثل البرق وجدب ديار المحبوبة أي لم يبق منها إلا تلك الدمن[1].

وصورتها المنعمة ذات الدعى والدل، فالابيات السابقة دلالة معانيها تتمحور في الالفاظ الآتية:

ساهر، راقد، اعواناً، المواطر، اعيا، اسير، رافعة، بود، سواد، فالكلمات السابقة تمثل روح المقدمة التي بدأ بها ابو العلاء المعري قصيدة في الفخر واحكم فيها ابياته السابقة.

وكأنه يقول ان هذه التي يتشبب بها شوقاً لرؤيتها هلكتني بالسّهر حين لمعان البرق المتواصل، وكان هذا البرق نبهني شوقاً لها وموضع أولها، فكلمة ساهر كأنها جعلت موضع الجزع الذي به المحبوبة صورة ثورية أي بالجذع الخوف كمعنى قريب اراد به موضع محبوبته الذي يسمى التجزع.

وصيغة المبالغة تأتي عن بلاغة الكناية التي تصف جفاف موضعهم وترقب نزول المطر باستمرار كلما لمح البرق المستمر غير الممطر، وليس له امل ان يمطر مما دفع خيال أبي العلاء المعري بالتعمق في الاغراق في التصوير كأن البرق ساهر عليه ليلاً، ودليل على ذلك كلمة راقد التي استخدمها على سبيل من الكناية هنا اراد به الاستعارة[2].

اليابس كناية عن قلة المطر، ثم ينتقل إلى التشبب ويصور نعومة من يحب جمالاً ودعة وراحة بال بائناً في صحة جسمه الذي جعل حجلها اسير رجليها، وجاءت صيغة المبالغة كما جاء في كلمة اعيا والتي يقصد بها بان هذه المرأة التي

[1] سقط الزند، ابو العلاء المعري، بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م، ص٥٦.
[2] شروح سقط الزند، مصدر سابق، ص٦٨.

يحب دخمة الجسم وكذلك الرجلين لا يذدن من جمالها حتى لا تستطيع ان تخرج الحجل من رجليها حتى لو استعانت بغيرها.

وجاءت كلمة اعيا ان الحجل اختفى بين رجليها كاختفاء المطر الذي اعيا اهل محبوبته بالسهر ترغبهم له، وهذا يرجع لكلمة يا ساهر البرق والذي يعدُّ من حسن الابتداء بمطلع القصيدة[1]: ومن محاسن الابداع قول أبي العلاء المعري بديع الاستعارة والكناية قوله:

يا سَاهرَ البْرقِ أيقظْ راقدَ السّمرِ *** لعلّ بالجَذعِ أعَواناً على السّهرِ

والالفاظ التي استخدمها مثل ساهر، وراقد وايضا صيغة المبالغة في لفظة المواطر بدلاً عن امطار وايضا ذكره لقبيلة المحبوبة التي نفسها تسمى مطر وهو يصور انها جديرة بالاهتمام هي ومن معها، والالفاظ ايضا في اسير، واعيا بانت صيغة مبالغة وصلت حد الاغراق بانها ممتلئة الرجلين ناعمة الجمال من امتلاء جسمها الذي اقطى هذا الخلخال فأصبحت كأنها بنعومتها ودعة حالها كأنها في قول المتنبي في وصف العربيان قوله[2]:

يَلبْسّنَ الوَشّي لا مُتْجمِلاتٍ *** ولكن كي يَصْلِنَ به الجَمَالا

وكأن الذي ينظر إلى ساقيها اي بدنها اللطيف الناعم الذي لا يتحمل النظر اليه وهذا ايضا فيه اغراق اجاد به المعنى احسن من المتنبي في قوله:

دَعْ النزِاعِ بقُومٍ يفْخرُونَ به *** وبالطِوال الرديْنيات، فأفتخر
وهُنْ أقَلامَكَ اللاتي إذا كَتبتْ *** مجداً اتتْ بمداد من هد هَدر

[1] كتاب شرح شواهد التخليص المسمى بمعاهد التنصيص، عبد الرحيم عبد الرحمن احمد العباسي، المطبعة البهية المصرية، ط الحجرية ١٣٠٤، ج٢، ص٢٠٣.
[2] العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب المتنبئ، شرح التصنيف اليازجي، ط٢، دار الغانم، بيروت، د. ت، ص١٣٩.

صيغة المبالغة هنا تبرز في دقة خيال أبي العلاء المعري الخصب لإجادة الفخر في البيتين السابقين احكم مراعاة النظير هذا هو ما سمي بالتناسب والتوافق والائتلاف والمؤاخاة وهو جمع امراً وما يناسبه مع إلغاء التضاد لتخرج المطابقة[1].

واليراع القصب والمراد به هاهنا القلم، اي دع القلم لمن يفخر به وافخر بالرماح، كأن الممدوح لمن لم يكتب بالقلم فاعتذر له، اي رماحك اقلامك وكتابتها مجدك ومدادها ما يصدر من دماء اعدائك جعل طعنه للاعداء بها كتب المجد له[2].

والرديني‌ات والرماح ونسبت إلى درينة وهي امرأة كانت تثقفها ويقال انها امرأة سمهر التي تنسب اليه الرماح السمهرية، وانما فضل في هذا الشعر السيف على القلم لانه مدح رجلاً كان من الفرسان ولم يكن له حظ في الكتابة وهنا اتى دور المبالغة في المدح.

[1] كتاب شرح شواهد التخليص المسمى بمعاهد التنصيص، مصدر سابق، ص٢٠٤.
[2] شروحات سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون وآخرون، الجزء الأول، د ط، د ت، ص١٥٦.

المبحث الثاني: صور المبالغة في الفخر والحماسة[1]:

أفَوقَ الْبدَرِ يُوضَعُ لي مِهَادُ *** أمِ الجوْزاء تحْتَ يدِي وسِادُ؟
قنِعْتُ فخِلتُ إنّ النجْمَ دوني، *** وسِيّانِ التّقَنّعُ والجِهادِ
وأطْرَبَني الشّبابُ غَداةَ ولىّ *** فليْتَ سِنِيه صوْتُ يُسْتعَاد
وليس صِبا، يُفادُ وراء شيبٍ *** بأعوَزَ من أخي ثِقةٍ يُفاد
كأني حيثُ ينشأ الدّجْنُ تحتي *** فها أنا لا أطلّ ولا أجاد
رُوَيدكَ أيّها العاوي ورائي، *** لتُخبرَني متى نَطَقَ الجَماد
سفاهُ زادَ عْنك الناس حِلْمُ؛ *** وغَيّ، فيه مَنفْعَةُ رَشاد
أأخْمُلُ والنّباهةُ في لَفظُ *** وأقْتِرُ والقَناعَةُ لي عَتاد
وألقى المْوتَ، لم تخِدِ المَطايا *** بحاجاتي، ولم تجف الجياد

قبل البدء في عرض نموذجاً من شعر المبالغة في فن الحكمة عند أبي العلاء المعري فلابد من تبيين بعض معاني الكلمات التي اوردها في الابيات السابقة التي تحمل صور من الحكمة تحكم شاعريته بها وهي البدر والجوزاء والنجم النباهة القناعة كلها معاني واضحة على مستوى الصورة البلاغية تقع مشبهاً به.

وقد استخدم البدر مشبه به في ارفع مثلا له في الكون هو وصف الشاعر:

تَحْمَله النَاقةُ الأدماءُ مُعتجراً *** بالبردِ كالبدرِ جَل نُوره الظَلَمَا

وهذا جعل من أبي العلاء ان يتعمق في الاغراق وان يضع هذه الالفاظ مثل البدر والنجم موضع المتشبه وهو المشبه به، مما جعله ان يبدأ مطلع قصيدة بالاستفهام التقريري وكأنه يجعل من الخيال حقيقة واقعة، فهو علو القدر رفيع المقام

[1] سقط الزند، مصدر سابق، ص٨٠.

شريف المنزل قنوع النفس كريم الاصل بارع اللسان بل هو فوق البدر موضعاً وفوق النجم علواً[1].

والمبالغة هنا جاءت ببلاغة التشبه بانه ارفع من النجم والبدر بما مهد له ان يأتي باعلى مبالغة من ذلك عندما انكر العلة الطبيعية لقيم القناعة التي تجعل الانسان صابراً على من قسم عليه من رزق ولا يسرف في ماله، ولكن أبي العلاء المعري لم تقنعه سمة هذه القيم حتى يعترف بالقناعة التي تمثل صفة من صفات نفسه فجاء بانه ارفع من النجم والنجم اقل منزلة منه فهو القناعة نفسها والعفة وهنا وصل الشاعر حد الغلو في التصوير ودليل على ذلك استخدم جملة النجم دوني اي ان محله ارتفع على الجوزاء والبدر[2].

وصورة المبالغة صورة في قوله: (ان محل النجم حيث بقيت نفسي مصونة عن الابتذال ولم تشف لديه الاطماع ولكن هذه حال شاقة اذ النفس لا تسمح بالصبر على الطعام الخشن واللباس الجشب فاذاً التقنع هو اظهار القناعة والجهاد مستويان في أن كل واحد منهما شديد النفس)[3].

أفوقَ البدرِ يُوضَعَ لي مِهادُ *** أمْ الجُوزَاءِ تَحْت يدِي وسِادُ
قَنِعتُ فَخِلتُ إنّ النَجْمَ دُونِي *** وسَيّانِ التّقنّعُ والجِهادُ

هذه الابيات تمثل حداً للغلو وبلاغة التصوير للمبالغة اي سواء على وضع فراشي فوق البدر او وضعت الجوزاء وسادة تحت يدي، لأن ان لم يكن شاهد على هذه الاشياء ليس مجرد السماع والقراءة يكاد ان ينطق المرء بمثل هذا الوصف ولعل ابا العلاء قد حضر مجالس الشراب وما احسب امرأ يحضرها في ذلك الزمان يسلم

[1] من شروح التنوير على سقط الزند لابي العلاء المعري، الشيخ مصطفى التاج وابنه ابراهيم، ط٢، ١٣٤٢هـ، ١٩٢٤م، ص٦٠.
[2] شرح التنوير، مصدر سابق، ص٦٨.
[3] شرح ديوان سقط الزند، مصدر سابق، ص١٥٤.

من تعاطيها، وغناء أبي العلاء المعري بالخمر ومناعاته لها شيء يواجه القارئ مواجهة صريحة في سقط الزند والدرعيات واللزوميات ورسالة الغفران[1].

يرى الباحث في الحديث عن الوصف ودقته وبراعة تصويره التي تبين دور خياله الخاص في تشكيل الصورة الشعرية التي كم حقق بها فرضه الذي يريده لا سيما في مقدمة القصيدة وحتى ان كانت غزلاً او تشبباً بالنساء نجده في تغييره يصل حد الافراط في الوصف والتصوير ويظهر هذا جلياً في قصيدة التي ودع فيها بغداد والقصيدة هي من الطويل وقافيتها من المواطر[2]:

نَبِنيّ مِن الغِرْبانِ، ليس على شَرْعِ، *** يُخَبَرُنا أنّ الشُّعوبَ إلى الصّدْعِ
وأصَدّقُهُ في مِرْيةٍ، وقد امْترَتْ *** صَحابةُ موسى، بعْدَ آياتهِ التَّسْعِ
كأنّ بفِيهِ كاهِناً، أو مُنجّماً *** يُحَدثُنا عمّا لَقِينا من الفَجْعِ
وما كان أفعْىَ أهْلِ نَجْرانَ مثْلَهَ، *** ولكنّ، للإنْسِ، الفضيلةَ في السمْعِ
تَلاقٍ، تفرَّي عن فِراقٍ تَذُمّهُ *** مآقٍ، وتكسيرُ الصّحائحِ، في الجَمْعْ
وشَكْلَيْن: ما بَيْن الأثافيّ واحَدُ *** وآخَرُ مُوفٍ من اراكٍ على فرعِ
أتى، وهْوَ طيّارُ الجناحِ، وإنْ مشى *** اشاحَ، بما اعْيا سَطيحاً، من السّجع
يَجِيبُ سَماويّاتِ لَوْنٍ، كأنما *** شَكِرنْ بشَوقٍ، أو سَكَرْنَ من البَتع
تَرَى كُلّ خَطّباءِ القَميصِ، كأنها *** خَطيبُ، تنمىّ في الغضِيضِ من اليَنْع
إذا وَطِئتْ عوداً، بِرجلٍ، حسبِتْها *** ثقيلةَ حِجَل تلمس العود ذا الشرع
متى ذن أنفُ البرد سِرتم فلَيتْه *** عقيب الثنائي كان عوقب بالجْدْع

وتأتي الابيات كمقدمة لهذه القصيدة والتي تعدُّ صورة من صور وصف الطبيعة اي وصف الامكنة والمدن ومثلها تميز بها الشعر الاندلسي وحتى الشعر السوداني.

[1] المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها في الجرس اللفظي، عبد الله الطيب المجذوب، ج٢، ط١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، ص٢٣٠.
[2] سقط الزند، مصدر سابق، ص٢٣٢.

يقول عجباً لهذا الغراب ان يعل بنا يخبرنا بنبأ ارتحال المحبوبة واهلها إلى ديار اخرى وشبه الغراب كأنه نبي وجاء في الافراط في بديع التورية بدليل قوله ليس على شرع، والتورية في لفظ نبي فالمعنى القريب النبي المعروف حامل الدعوى بوحي من الله تعالى مرسل رسالة الشرع، اما المعنى البعيد يريد به حلول جمع من الغربان بموضع ديار المحبوبة منذرة له بانقطاع الوصل عنه بل هي غراب البين[1].

وهذا الغراب اذا بان اهل الدار إلى نجعةٍ وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتغمغم فتشاءموا به وتطيروا منه اذ كان لا يفتري منازلهم الا اذا بانوا، وعادة العرب في الزجر بالطيور حتى تطيروا في الغراب واختراب والتفرق وضربوا به المثل في التشاؤم فقالوا اشأم من غراب البين.

والمبالغة في حد الافراط في الوصف الذي جاء في دقة التصوير وعمق فكرته اراد بها أبو العلاء المعري مقدمة لقصيدة في وداع بغداد بان الغراب نبياً ونفى عنه كونه شارعاً لقطع ايهام النبوة، ولكن حقق به قضية الاقبال عن ارتحال المحبوبة ولكنه عندما حل بها فكأنه نبي اخبره بان الاجتماع صاير الافتراق ومن اعجب اوصافه للخمر قوله[2]:

البابليةِ بابَ كلّ بليةٍ *** فتوقينَ هُجومَ ذكّ البابِ
جَرتْ ملاحاة الصديقِ وهجرهُ *** وأذىّ النديمِ وفرقةِ الاحبابِ
هَتَكتْ حِجابَ المُحصناتِ *** وحَشمتِ مِنهنْ العَيَد تصِفهمْ الأربابِ

كأنه آخر من المتنبي في قوله:

تبكي على الدُنيا وما مِنْ *** مَعشر جَمعتهُمْ الدنيا ولمْ يتَفرقَوا

[1] من شروح التنوير على سقط الزند، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص٦٠.
[2] من شروح التنوير على سقط الزند، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص٩٢.

ثم تحول إلى حد الاغراق من حديث هذا المخبر ان يصدقه او يكون في شك وان كان يعني استيلاء في نفسه الخوف وتسميه شكه مثل شك قوم سيدنا موسى عليه السلام في نبؤته ودعوته حتى تكرر الآيات التسع عليهم وبعض لم يؤمنوا بل كان الفراق وهو منزل ديار المحبوبة كأنه كاهناً او منجماً يخبره عن التفجع والتوجع لفراق هذا الحبيب[١].

ثم هذا الكاهن الذي اخبرنا اعمق في الكهانة من الكاهن المعروف الذي كان يسكن نجران باليمن والذي يسمى افعى الجرهمي، والمبالغة هنا بان تصويره والافراط في التشبيه في قوله: اي لم يكن هذا الكاهن مع اصابته ما يخبر عنه فالغراب اعمق منه كهننا واخباراً عن الغيب وهو ارتحال المحبوبة[٢].

لقد ورد فيما قيل عن ابي العلاء المعري أن النزعة الانسانية عالية على شعره حتى اصبحت الكناية لديه في الإنسان وغاياته ومصدره الإلهامي وقدرته على إثارة التعبير والفكرة اللُّغوية المرتبطة بهذه الصور[٣].

يرى الباحث ان دمامة أبي العلاء المعري مقرونة بالعمى والكبرياء والحزلقة التي لا تخلُ منها عالة لغوي منعقة وبغضت النساء فيه شيئاً، ودعته ان يرد على هذا البغض او العزوف بادعاء العفاف عنهن والسخط عليهن، ولو كان ذا حظ من الحكمة والكنان قد اطرح التكبر شيئاً، وتذلل من ذلك التذلل الذي يلزم مثله الرجل حتى ينال الحظوة من المرأة جميلة كانت او غير جميلة، ويترجح عندي ان قوة الشك عند المعري مصدرها عماه كان لها ايضا اثر كبير في تعزيز نفوره عن النساء[٤].

---

[١] من شرح التنوير على سقط الزند، مصدر سابق، ص٩١.
[٢] ديوان المتنبي، ابي الطيب احمد بن الحسين، ط، دار الحرم، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٢٢.
[٣] النزعة الانسانية في شعر العقاد، د. عبد الحي دياب، ط١، دار النهضة، بيروت، د. ت، ص١٩-٢٧.
[٤] المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها، مصدر سابق، ص١٨٥.

ولا يبعد ان هذا الرجل بما وهب له من فطنة وذكاء واعتزاز بنفسه وشعور بجلال تربيته، وكان لا يرضى لنفسه الا بإمرأة جميلة كما يظفر به المبصرون، ولعله كان يظن ان مذية الابصار وصدها كافية للحصول على المرأة الجميلة، ان حرمانه اياها ليعرضه للمصائب الا يجوز ان تزف اليه امرأة بزعم الناس له يعرفونه من عجزه عن رؤيتها يقول في المبالغة الاغراق[1].

[1] سقط الزند، مصدر سابق، ص٣٣١-٣٣٢.

المبحث الثالث: صورة المبالغة في الرثاء والحكمة:

مهمة الشاعر البارع في الحياة ان يكون حتى الضمير وجذوته مضطرمة دائماً فعليه مراه كل شيء مثل الصورة المبصرة عند أبو العلاء المعري على رغم فقدانه لبصره الا ان قلبه صار مرآة صادقة لثقافته العميقة التي جعلها ثقافة حقيقية حية في ديوانه سقط الزند وصور قصيدة في الرثاء والحكمة هذه تمثل نموذجا لذلك[1]:

صَاحِ! هذي قُبُورنا تملأ *** الرُّحب فأين القُبُور من عهدِ عادِ
خَففّ الوطء ما اظن أديمَ *** الأرضِ إلاّ منْ هذه الأجساد
وقبيح بناء وان قدم العهد *** هوان الآباء والأجداد
سِرْ إنْ استطعت في الهواء رويداً *** لا اختيالاً على رُفات العباد
رُبّ لحدٍ قد صار لحداً مِراراً *** ضاجك من تزاحم الأضداد
قصد الدهر من ابي حمزة *** الأواب مولى حجّي خبرن اقتصاد
وفقهياً أفكارهُ شدّنْ *** للنّعْمانِ ما لمْ يشدْه شعرُ زياد
فالعِراقيِّ بَعدهُ للحِجازيِّ *** قَليلُ الخِلافِ سَهْلُ القياد
وخطيباً لو قامَ بينْ وُحُوشٍ *** عِلّمَ الضّارياتِ برّ النّقاد
راوياً للحَديثِ لمْ يُحوجْ *** المعرُوفِ منْ صِدقِه إلى الإسنادِ

يرى الباحث ان أبا العلاء المعري ابدع في جميع موضوعات شعره ولم يخلُ غرض من اغراضه من الاغراق في الوصف الذي يصل إلى حين الاحيان إلى الغلو ويظهر هذا جلياً في قصيدته في الرثاء التي خلله بالشعر الحكمة عن ما رثى صديقه الودود إلى خمرة الشاري في قصيدته[2].

[1] القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، مصدر سابق، د. ت، ص٢١٧.
[2] سقط الزند، مصدر سابق، ص٧.

ونراه يخاطب من صاحبه يد بيد في تشييع جنازة صديقه، وقصيدة طويلة كلها في الحكمة التي تتسم بالقيم التربوية والروحية بجانب اسهامه بالقران في بعض ابياته الشعرية وصديقه ابو حمزة حنفي المذهب والذي كنى به في قصيدة بالعراقيّ وايضاً كنى الحجازي الشافعي[1].

فالأبيات المختارة تمثل بموجزها قصيدة فيها الرثاء والحكمة ولكن فيها الاغراق والغلو والافراط في التصوير، وتنجده يصور تعبه وهو سائر مع صاحبه في ركب الجنازة وهو ما سلا بيده فلم يقول له: رويدك انما خاطب صاحبه الا تذهب ببطء على هذه الارض، ولم تعلم انها جزء من اجساد آبائنا واجدادنا الذين سقونا دمائهم وهذا والده فكيف لنا ان نهين هؤلاء الآباء والاجداد وحتى لو طال العهد من موته وكيف يختال على رفاتهم، والمبالغة التي صور بها الأبيات فصوره السابقة شملت الافراط في تصوير القيم الروحية والانسانية بل في امكانية في استلهام القرآن في قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[2]، اقتيس أبو العلاء هنا قول الله تعالى ودعم به حكمته في بيتا الشعر قوله:

سِر إنْ استَطعتْ رويداً *** لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ

ثم ينتقل إلى بلاغة الاستعارة المكنية التي جعل اللحد المعروف في القبر بانه ضيق منه قول المتنبي[3]:

مَا كُل مَنْ ضَاقَ الفضاءِ بجيشه *** حتى ثوَى فَحواه لحدُ ضيقُ

اما أبو العلاء يجعل من اللحد شيء واسعاً يحمل كل الاضداد من الناس مشخصاً اللحد بانه ضاحك، وهذا فيه حدة الافراط في تصويره على سبيل الكناية، ثم

[1] شروح التنوير، مصدر سابق، ص٢٨٢.
[2] سورة الاسراء، الآية (٣٧).
[3] ديوان المتنبي، مصدر سابق، ص٢٣.

ينتقل في تصوير محاسن صديقه المتوفى وصديقه افقه من ابو حنيفة والشافعي، بل هو مصدر افكاره الفقهية وهو ايضا خطيب، وصورة المبالغة التي وصلت حد الغلو بانه لو وقف خطيباً على الوحوش الضارية لامتنعت عن افتراس صغار الغنم، وليس هذا فحسب انما ختم تصويره لصديقه الفقيه ابي حمزة بانه معروف بصدقه فهو لا يحتاج عند رواية للحديث إلى اسناد[١].

[١] شرح التنوير، مصدر سابق، ص٢٨٤.

الخاتمة والنتائج والتوصيات

الخاتمة:

جاءت خاتمة البحث والتي ابرزت أن ابا العلاء المعري شاعر بجميع صور المبالغة محققاً بها اغلب موضوعات الشعر واغراضه في ديوانه "سقط الزند"، ثم احكمت من نتائج البحث توصيات تدعم الدراسات الادبية والنقدية من خصائصها الموضوعية والأسلوبية ان يتناول شعر ابي العلاء المعري من فروع البلاغة وفنونها.

النتائج:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، بعد تطوافي في سِفر أبو العلاء المعري "سقط الزند" بثوب مطّرز بفن المبالغة وصورها ومنقوش بتحليل مضمونها سواء كان في البواعث التكوينية او تعريف بها في اللُّغة والاصطلاح او تحليل مضمونها من خلال نماذج لأغراض من شعره جاءت النتائج التالية:

١. أن ابا العلاء المعري شاعر بأصعب فن من فنون البلاغة وهي المبالغة وانماطها الاغراق والغلو، وليس ذلك فحسب انما بارع دقيق التصوير واسع اللُّغة ومفرداتها وجمالها وخصائص ألفاظها ومعانيها، وسهولة استخدامه لها في تعبيره وفي جميع ما يريد ان يصل اليه.
٢. على الرغم من متانة ألفاظه ومتانة فكرته ايضا التي يعبر بها في موضوعات الغزل والرثاء الا انها تصل الى حسن الايقاع والسرعة الفنية التي تميز بها ابو الطيب المتنبئ قبل ممزوجة بالحكمة في جميع أغراض شعره.
٣. تميزت الصور والتشابهية لأبي العلاء المعري ابلغ دقةٍ وتصويراً من شعراء عصره او من سبقه حدى بشار ابن برد تساوى معه في الآفة التي ألمت بهم؟
٤. وخلاصة هذا التطواف ان ابا العلاء المعري شاعر بفن المبالغة في ديوانه سقط الزند.

التوصيات:

جاءت نتائج وتوصيات البحث كالآتي:

١. توصية الباحثين بتناول موضوعات مثل فن المبالغة في جميع مراحل الادب العربي على ضوء الخصائص الموضوعية والاسلوبية في الادب العربي من خلال فن المبالغة.
٢. توصية الباحثين بالتعمق في تراث ابو العلاء المعري لا سيما الشعري فيما يحمله من معارف ومفردات لغوية تدعم كل عقل أدبي منتج.
٣. توصية الباحثين عند تعريف أي فن من فنون البلاغة وتطبيقاتها في الادب العربي ويكون الاستشهاد بشعر الشاعر او نثره موضع التعريف البلاغي المراد تطبيقه في الشعر لغة او اصطلاحاً حتى يكون التعريف دعامة تطبيقية على البحث البلاغي والاستفادة من الادب المبحوث عنه بواسطة فنون البلاغة في حلقات تدريسها على جميع المراحل التعليمية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

اولاً: **المصادر**:

- القرآن الكريم

ثانياً: **المراجع**:

١. اوج التحري عن حيثية المعري، يوسف البديعي، دمشق، ط الترفي، ١٩٤٤م.
٢. البلاغة العربية، اسسها وعلومها، كامل عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ج١ البلاغة العربية، اصولها وامتدادها، ط افريقيا، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.
٣. البيان والتبيين، ابو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، ط١، دار صعب، بيروت، ١٩٦٧م.
٤. تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، ط٢٦، دار الثقافة بيروت، لبنان.
٥. تجديد ذكرى ابي العلاء، الدكتور طه حسين، مصر، دار المعارف، ط٦، ١٩٦٣م. العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب المتنبئ، شرح التصنيف اليازجي، ط٢، دار الغانم، بيروت.
٦. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر في تبيين ايجاز القرآن، ابي الاصبع، ط١.
٧. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد احمد الهاشمي، ط، بيروت.
٨. خزانة الادب وغاية الأرب، الاديب الشيخ تقي الدين ابي بكر علي بن حجة الحموي، شرح عصام شعيتو، ط٢، ١٩٩١م، بيروت، دار الهلال.
٩. ديوان الجرجاني، تحقيق محمد قاسم مصطفى، ط، بغداد، ١٩٧٩م.
١٠. ديوان المتنبي، ابي الطيب احمد بن الحسين، ط، دار الحرم، القاهرة، ٢٠٠٧م.
١١. ديوان سقط الزند، ابو العلاء المعري، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م.
١٢. ديوان لزوم ما لا يلزم (اللزوميات)، ابي العلاء المعري، شرح حسن احمد، ط لبنان، ٣٦٣-٤٤٩هـ.

١٣. رثاء غير الانسان في الشعر العباسي، عبد الله عبد الرحيم السوداني، ط ابو ظبي ١٩٩٩م.
١٤. رسالة الغفران، ابو العلاء المعري، دراسة نقدية دكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط٤.
١٥. رسالة الملائكة، ابي العلاء المعري، شرح محمد سليم الجندي، دار الصادر، بيروت، د. ط، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٦. رسائل البلغاء، محمد كرد علي، ط القاهرة، ١٩١٣م.
١٧. سقط الزند، ابو العلاء المعري، بيروت ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م.
١٨. شذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي، ط٣.
١٩. شرح سقط الزند، محمد بن سليمان المصري، تحقيق: د. طه حسين، ط٣، ١٩٤٥م.
٢٠. شروحات سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون وآخرون، الجزء الأول.
٢١. علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، ص٣١٣–٣١٤.
٢٢. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، بيروت، دار الجيل، ١٩٨١م،
٢٣. في النقد الادبي، دكتور شوقي ضيف، ط٦.
٢٤. القيم الروحية في الشعر العربي القديمة والحديثة، د: ثريا عبد الفتاح ملحس، ط٤، دار النشر، بيروت.
٢٥. كتاب شرح شواهد التخليص المسمى بمعاهد التنصيص، عبد الرحيم عبد الرحمن احمد العباسي، المطبعة البهية المصرية، ط الحجرية ١٣٠٤، ج٢.
٢٦. المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، ج٢، في الجرس اللفظي.
٢٧. مع الشعراء، نجيب محمد، ط٢، دار الشروق، بيروت، د.ت.
٢٨. معجم الادباء، د: ياقوت الحموي، ج٣، جميع النهج مختومة بخاتم ناشره.

٢٩. مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تحقيق حجر عاصي، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٩١م.
٣٠. من شروح التنوير على سقط الزند لابي العلاء المعري، الشيخ مصطفى التاج وابنه ابراهيم، ط٢، ١٣٤٢هـ، ١٩٢٤م.
٣١. من محاضرات استاذ الأمين الخولي بكلية الآداب: والتفسير الادبي لتاريخ مصر في القرنين الثالث والرابع.
٣٢. النزعة الانسانية في شعر العقاد، د. عبد الحي دياب، ط١، دار النهضة، بيروت.
٣٣. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار المعارف، ط١، ١٩٦٦م.

فهرس الآيات القرآنية

السورة	رقمها	الآية	رقمها	الصفحة
سورة الحج	٢٢	يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ	١٢	٥٨
سورة النور	٢٤	كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ	٣٩	٥٩
سورة النور	٢٤	ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ	٤٠	٦٥
سورة الاحزاب	٣٣	وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ	٩	٦٩
سورة ابراهيم	١٤	وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ	٤٦	٦٩
سورة الاسراء	١٧	إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ	٣٧	٨٥

فهرس الأشعار

القافية	القائل	الصفحة
باب الباء		
الترابا	ابو الطيب المتنبي	٦٦
الباب	ابو العلاء المعري	٨١
باب الثاء		
النبيث	ابو العلاء المعري	٣٢
باب الدال		
مسعودا	ابو العلاء المعري	٤٩
ضماد	ابو العلاء المعري	٥٥
التلاد	ابو العلاء المعري	٦٦
وساد	ابو العلاء المعري	٧٨
عاد	ابو العلاء المعري	٨٤
باب الراء		
القهار	ابو العلاء المعري	١٨
المزعفرا	المخبل السعدي	٤٧
مفتقر	ابن احمر	٤٩
الحناجر	تأبط شرا	٧٠
السهر	ابو العلاء المعري	٧٤
فافتخر	ابو العلاء المعري	٧٦
باب العين		
الصدع	ابو العلاء المعري	٨٠
وضرع	عمرو بن حاتم	٦١
اللدع	ابو العلاء المعري	٣٨

باب السين		
الغرس	منظور بن مرئد الأسدي	٥٠
بغلس	ابو العلاء المعري	٤٢
باب القاف		
حمقا	حسان بن ثابت	٦٢
يتفرقوا	ابو الطيب المتنبي	٨١
ضيق	ابو الطيب المتنبي	٨٥
باب اللام		
كامل	ابو العلاء المعري	٣١
اهوال	ابو العلاء المعري	٣٨
مالا	عميرة بن الأيهم الثغلبي	٥٩
بقيل	ابو العلاء المعري	٦٥
كلأ	ابو العلاء المعري	٦٦
الجمالا	ابو الطيب المتنبي	٧٦
باب الميم		
فئام	دريد بن الصمة	٥٩
ظالم	أوس بن تميم	٦٠
نعام	أوس الهجيمي	٦٠
محموم	ابي تمام	٦١
سوام	ابو العلاء المعري	٦٣
حسام	ابو العلاء المعري	٦٧
الملجم	ابو العلاء المعري	٦٧
قتام	ابو العلاء المعري	٧٠

المزم	ابو العلاء المعري	٦٨
باب النون		
الحنينا	بن أحمر	٤٩
الأرجوان	ابو العلاء المعري	٦٢
اجفاني	عبد القاهر الجرجاني	٦٨
بالقرآن	ابو العلاء المعري	٦٨
وكن	ابو العلاء المعري	٣٦
باب الياء		
عملي	ابو العلاء المعري	٢٩
باب الخاء		
تنوخا	ابو العلاء المعري	٢٩

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الآية	أ
الإهداء	ب
الشكر والعرفان	ج
مستخلص البحث باللغة العربية	د
مستخلص البحث باللغة الانجليزية	هـ
مقدمة	١-٥
الفصل الأول **عصر الشاعر**	
المبحث الأول: عصر الشاعر من حيث الحالة السياسية – الادبية – الاجتماعية	٧
المبحث الثاني: حياته ونشأته بجانب عقيدته وآثاره حتى وفاته	٢٨
المبحث الثالث: عرض عام لديوانه سقط الزند	٤٤
الفصل الثاني **المبالغة وانواعها ومفهومها وآراء العلماء حولها**	
المبحث الأول: تعريف المبالغة	٥٨
المبحث الثاني: أنواع المبالغة	٦٥
المبحث الثالث: آراء العلماء حول المبالغة	٧١
الفصل الثالث **دراسة تطبيقية فنية لشعر أبي العلاء المعري**	
المبحث الأول: صور المبالغة في الغزل والفخر	٧٤
المبحث الثاني: صور المبالغة في الفخر والحماسة	٧٨
المبحث الثالث: صور المبالغة في الرثاء والحكمة	٨٤

الخاتمة	٨٨
النتائج	٨٨
التوصيات	٨٩
المصادر والمراجع	٩١
فهرس الآيات القرآنية	٩٤
فهرس الأشعار	٩٥
فهرس المحتويات	٩٨